أبو القاسم الشابي

وأغاني الحياة

بقلم:
ثابت مخلف محمد

إنني أنا الروح الذي
سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطلعاً بأحـ
ـزانِ الشبيبة والمشيب

* * *

إنه الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي الذي قضى كالشهاب الساطع، وكالبرق اللامع، وعاش واحداً من كبار شعراء العربية ومبدعيها في العصر الحديث، ورائداً من رواد المدرسة الرومانسية، إلا أن اسمه ما يزال يرن اليوم في جميع أنحاء العالم العربي .. ولا يزال شعره أغان عذبة على كل لسان ونشيداً يتدفق من كل حنجرة.

نحيف الجسم، مديد القامة، قوي البديهة، سريع الانفعال.. حاد الذهن، يراه أصدقاؤه بشوشاً كريماً، وديعاً متأنقاً، طروباً لمجالس الأدب، يحب الفكاهة الأدبية، ويراه من لم يخالطه حيياً محتشماً، ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية ، وكان محباً لبلاده، صادق الوطنية يؤمن بأن لقادة الكفر رسالة إنسانية سليمة وحاول أن يحققها ما استطاع في اثناء حياته القصيرة قولاً وعملاً. هذه هي الصورة المشرقة التي رسمها بالكلمات محمد الأمين الشابي لشاعرنا أبو القاسم الشابي وهي صورة في قمة الانسانية تكمل صورته الفنية والشعرية في وجدان قارئه:

يا رفيقي أما تفكرتَ في النا
س وما يحملون من آلام
فلقد حز في فؤادي ما يَلْـ
ـقون من صولة الأسى الظلاّم

* * *

لقد افتقد العالم العربي بفقد هذا الشاعر صوتاً شعرياً متميزاً بالغ العذوبة والنقاء، شديد القوة والتأثير، معبراً عن الحسّ الشعري المرهف والعالم الشعوري المفعم بالغربة والتوحد والتساؤلات الكبرى عن الحياة والوجود وكل مافي عناصر الطبيعة من عطور وانغام وورود وضياء وفجر وصباح ، وكل ذلك في لغة أنيقة صافية لاغرابة فيها ولا إعنات، مطرزة بالظلال والإيحاءات:

قضيت أدوار الحياة مفكراً
في الكائنات معذباً مهموماً
فوجدت أعراس الحياة مآتماً
ووجدت فردوس الزمان جحيما
يا غربة الروح المفكر إنه
في الناس يحيا سائماً مسؤوما

* * *

ولد الشاعر أبو القاسم الشابي عام ١٩٠٩في بلدة الشابية. وقد نشأ في بيت علم وأدب وفضل. فقد كان والده الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي عالماً فاضلاً درس في الجامع الأزهر في القاهرة ثم بجامع الزيتونة بتونس وقد أنجب ولده أباالقاسم قبل أن يُعيّن قاضياً شرعياً مما فرض عليه التنقل من بلد إلى آخر في شتى أنحاء تونس مما أتاح الفرصة للطفل لأن يملأ عينيه بجمال الطبيعة المتنوع في تلك الأماكن، وبطبائع أهلها أنماط حياتهم المختلفة:

أقبلَ الصبح يغنّي للحياة الناعسهْ
والربا تحلم في ظلّ الغصون المائسه
وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسه

* * *

لقد استأثرت بنفس شاعرنا دواوين الشعر القديمة والحديثة منذ عامه الثاني عشر فبدأت موهبته تتفتق وتتفتح فإذا به يكتب الشعر وهو ما يزال في عامه الخامس عشر حيث وجد في بيئة تونس العوامل التي دفعت قدراته الخبيئة إلى النور، وأنضجت رؤيته لواقع الحياة وللكون من حوله، وأغنت تجربته الشعورية:

يا شعر أنت فم الشعور
وصرخة الروح الكئيب
يا شعر أنت صدى نحيـ
ـب القلب والصب الغريب

* * *

لقد كان ذلك كله عوامل مساعدة على تحديد موقف الشاعر من القضايا والأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية السائدة آنذاك، وبالتالي تحديد موقفه من الصراع الدائر بين الثقافة العربية القديمة، وبين الثقافة العصرية الوافدة من بلدان الغرب. لقد اختار الشابي موقفه في هذا الصراع الى جانب الثقافة العصرية دون أن يتجنى على الثقافة السلفية بما فيها من قيم، وهكذا أصبح صوتاً متفرداً بين معاصريه من الشعراء التونسيين، بالرغم من أن ثقافته كانت عربية صرفاً إذ أنه لم يتعلم لغة أجنبية يطلع من خلالها على الآداب الغربية والفكر الغربي، إلا أنه اطلع من خلال الترجمات على آفاق من التجربة الشعرية الغربية التي رفدت ثقافته بروافد غزيرة وبتحصيلة طيبة.

لقد واجه الشابي التخلف الفكري والأدبي في بيئته التونسية آنذاك إلى جانب النزعة المحافظة في المجتمع بشتى أشكالها وصورها: ذلك التخلف الناجم عن الأوضاع السياسية في تونس التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي منذ عام ١٨٨١ مما أدى الى سيادة الظلام والظلم الاجتماعي والسياسي، فصرخ الشابي في وجه ذلك كله قائلاً:

لك الويل يا صرح المظالم من غد
إذا نهض المستضعفون وصمموا
ألا أيها الظم المصعر خده
رويدك إن الدهر يبني ويهدم
أغرك أن الشعب مغض على قذى
لك الويل من يوم به الشر قشعم

* * *

وقد أدرك الشابي وقوع الشعب في حبائل الخدع التي تدعو إلى التمسك بالماضي والقوالب الجامدة والهياكل الميتة، التي لا روح بها ولا حياة، فها هو يخاطب شعبه في رائعته الشعرية الطويلة، «إلى الشعب» قائلاً:

أنتَ يا كاهن الظلام حياةٌ
تعبد الموت، أنت روحٌ شقي
أنت دنيا يظلّها أفق الماضي
وليل الكآبة الأبدي
والشقيّ الشقي في الأرض قلب
يومه ميت وماضيه حي

* * *

وفي قصيدته المشهورة «النبي المجهول» يتابع فكرته هذه ، ويخاطب شعبه بالقول :

أنتَ في الكون قوة لم تَسُسْها
فكرة عبقرية ذات بأس

أنت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس

*   *   *

وحيال ذلك الواقع أهاب الشابي بشعبه لأن ينفض عنه ذلك الغبار وينطلق نحو الحياة الحرة الكريمه، ويجدد العزم لمقارعة الاستعمار فهو لن يخرج من حالة الموات إلى عنفوان الحياة إلا إذا «أراد» أن يكون شعباً حياً وتغلب دافع الحياة على دافع الموت في نفسه، وفي هذا الصدد يوجه الشابي إلى شعبه رائعته الخالدة «إرادة الحياة» التي تحمل الكثير من جوانب فلسفة الشابي ونظرته إلى الحياة:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة
تبخر في جوها واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة
من صفعة العدم المنتصر

*   *   *

ولكي تتولد في النفس المظلمة أشواق الحياة وحرارتها فإنه يدعو إلى المغامرة والمجازفة، وإشباع القلب بالجرأة والإقدام كي يقتحم الأخطار والعواصف حتى يصل إلى شواطىء الحياة الجميلة:

إفتح فؤادك للوجود وخلّه
لليم، للأمواج، للديجور
واتركه يقتحم العواصف هائماً
في أفقها المتلبد المقرور
حتى تعانقه الحياة ويرتوي
من ثغرها المتأجج المسجور

*   *   *

لقد فتح الشابي قلبه للحياة، واحتضن بأحاسيسه وشعوره الكون وظواهره الشاسعة فهل لقي منهما أية استجابة شافية؟ وهل كشفا له عن أسرارهما وعن الحقائق المستورة خلف تلك الظواهر:

كلما أسأل الحياة عن الحق
تكف الحياة عن كل همس

*   *   *

وعندما يسأل الليل يجده صامتاً راكداً في بلادة قاتلة:

غير أن الليل قد ظل ركوداً جامداً
صامتاً مثل غدير القفر من دون صدى

*   *   *

ثمة نافذة اخرى نطل منها على آفاق تجربة هذا الشاعر المبدع ألا وهي موقفه من الجمال، إنه ينشد فيه المثل العليا، ويرفع فيه من شأن الروح ويقلل من قيمة الشكل والنواحي الحسية، فالجمال الحقيقي كما يراه هو ذلك الذي تهتز له الروح، هو الجمال المعنوي الذي يقترن بمعاني الحق والخير وهو الذي يتمثل في النفوس والقلوب، لا في الأشكال والأجسام:

غير باق في الكون إلا جمال الـ
ـروح غضاً على الزمان الأبيد

*   *   *

وها هو يؤكد تلك الأفكار المشرقة والمعاني الشفافة في رائعته المشهورة «صلوات في هيكل الحب»:

عذبة أنت كالطفولة كالأحـ
ـلام كاللحنَ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء
كالورد كابتسام الوليد
أنت.. ما أنت؟ رسم جميل
عبقريٍ من فن هذا الوجود

*   *   *

وإذا أمعنا النظر في تجربة الشابي ناظرين من زاوية أخرى لوجدنا وجهاً آخر يتكامل وتعانق مع سائر الوجوه، إذ يتجسد أمامنا موقف الشاعر من العاطفة والعقل. إن العقل يمثل صرامة المنطق وشدته، وهكذا فإن الشاعر رفع من شأن الوجدان الذي يرتبط به الفن، فلقد عاش الشابي بعواطفه حتى «كادت العواطف عنده تصبح مرضاً ناهشاً» على حد تعبير نازك الملائكة:

عش بالشعور وللشعور فإنما
دنياك كون عواطف وشعور
شيدت على العطف العميق وإنها
لتَجف لو شيدت على التفكير

*   *   *

ولا يفوتنا أن نطالع صفحة أخرى مشرقة في سفر تجربته الوضاءة إنها صفحة الغربة والعودة الى الغاب ملتمساً لروحه السكينة والهدوء، شأنه في ذلك شأن معظم الشعراء الرومانسيين، فالغابة

رمز نفسي يمثل الرغبة الدفينة في العودة إلى رحم الأم، وليست مجرد انتقال من حياة الناس الصاخبة إلى حياة الهدوء والاستقرار، فهو يقول:

ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعبي
لأقضي الحياة وحدي بيأس
ها أنا ذاهب إلى الغاب علّي
في صميم الغابات أدفن نفسي

* * *

ومن البديهي فإن الشاعر لم يذهب حقاً إلي الغاب لكي يعيش فيه، لكنه اضطر تحت وطأة الجهل المتفشي في شعبه وعدم فهمه الأمور ومكنوناتها دون مس وجس، اضطر إلي أن يتقوقع داخل شرنقة روحه.

لقد شعر بالغربة بسبب العجز عن القيام بدور إيجابي وفعال في تغيير أوضاع البلاد السياسية والاجتماعية المنهارة، ففر من المجتمع ، ولكن أين المفر؟ إن المفر إلى داخل النفس. إسمعه يقول في رائعته «الغاب»:

في الغاب، في الغاب الحبيب وإنه
حرم الطبيعة والجمال السامي
طهرتُ في نار الجمال مشاعري
ولقيت في دنيا الخيال سلامي
ونسيت دنيا الناس فهي سخافة
سكرى من الأوهام والآثام

* * *

ولا شك في أن هذه الغربة فرضت نفسها فرضاً على شاعرنا، وإلا فإن حبه لشعبه ووطنه حباً مطلقاً، لا تقيّده قيود، ولا تحده حدود، إنها الغربة التي فرضها ذلك الصدع الكبير والهوة السحيقة اللذان فصلا بين رؤيته ورؤيتهم وبين منهجه في الحياة ومنهجهم فهو يقول في قصيدته «الأشواق التائهة»:

يا صميم الحياة كم أنا في الدنيا
غريب أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد
فؤادي ولا معاني بؤسي

* * *

ثمة ظروف شخصية ساهمت في تشكيل تجربته الشعرية، وهي الظروف التي تمس جوهر حياته الشخصية، فوالده الذي توفي وودع الدنيا بعد أن كان سنده الوحيد الذي يحمل عنه أعباء الحياة، لقد توفي تاركاً له تركة من المتاعب والمسؤوليات، ثم الفتاة التي أحبها في مستهل حياته فإذا بيد المنون تختطفها، ثم العلة التي أصابت قلبه، وهي مرض تضخم القلب الذي كان خاتمة المطاف لحياته الحافلة بالعطاء الفكري والوجداني والمواقف الإنسانية الخلاقة المتمثلة في القيم العليا:

ثم اختفت أوّاه طائرة بأجنحة المنون
نحو السماء وها أنا في الأرض تمثال الشجون

* * *

ومنذ ذلك الحين تجسم الموت بعينه، عدواً للحياة، وربما صرخ في وجهه متمرداً مستنكراً، ففي قصيدته «ألحاني السكرى» يطلق صرخته قائلاً:

أيها الموت، أيها القدر الأعمى
قفوا حيث أنتم أو فسيروا
ودعونا هنا تغني لنا الأحلام
والحب والوجود الكبير

* * *

لقد نظر الشاعر إلى الموت الذي يتسلل إلى قلبه شيئاً فشيئاً بوصفه تجربة جديدة ربما رأى فيها خلاصه وها هو الشاعر الذي غنى للحياة و«أراد» الحياة ذات يوم يفسح الطريق الآن إلى إرادة الموت ولكنه في الوقت نفسه يحيل تجربة الموت إلي تجربة إنسانية حيّة:

جف سحر الحياة يا قلبي الدامي
فهيا نجرب الموت هيا

* * *

لقد توفي شاعرنا وهو بعد في صدر شبابه وفي فجر حياته في التاسع من أكتوبر سنة ١٩٣٤ ففقدت الحياة وفقد الشعر واحداً من هؤلاء القلائل الذين أفنوا حياتهم في حب الشعر والحياة والإخلاص لهما. لقد أخذ صوته يتردد عالياً في أرجاء العالم العربي بوصفه مناضلاً خلاقاً وفناناً مبدعاً، وشاعراً رومانسياً من الطراز الأول:

فما المجد في أن تُسكر الأرض بالدما
وتركب في هيجانها فرساً نهدا
ولكنه في أن تصد بهمة،
عن العالم المرزوء فيض الأسى صدا

* * *

وإليك ما يراه في الحب:

الحب شعلة نور ساحر هبطت
من السماء فكانت ساطع الفلق
الحب روح إلهي مجنحة
أيامه بضياء الفجر والشفق
الحب غاية آمال الحياة فما
خوفي إذا ضمني قبري وما فَرَقي

* * *

وخياله واسع خصب، ومبتكرٌ خلاق، يطير بأجنحة قديرة خفاقة في سماوات الشعر وأمداد الفضاء، جوابة في آفاق الإبداع، تعانق ظواهر الكون، لتتخلّل كل ما في هذا العالم المنظور وغير المنظور:

يا قلب كم فيك من دنيا محجبةٍ
كأنها حين يبدو فجرها إرم
يا قلب كم فيك من كون قد اتقدت
فيه الشموس وعاشت فوقه الأمم

* * *

وقلبه كالخضم الرحب المتجدد، وكالطبيعة الخالدة، التي لا تعرف الفناء، بل تعرف تبدل وتحول الفصول:

تبلو الحياة فتبليها وتخلعها
وتستجد حياة مالها قِدَمُ
وأنتَ أنت شبابٌ خالد نضر
مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم

* * *

وها هو يضع بين أيدينا صورة ناصعة أخرى من صور خياله الخلاق، والعبقري، في رائعته «حديث المقبرة» فهو يقدم لنا فيها حواراً فلسفياً مداره الحياة، والموت، والخلود، والكمال، ضمن صور متسلسلة كما يتسلسل الماء القراح من نبع فياض:

خلقنا لنبلغ شأوَ الكمال
ونصبح أهلاً لمجد الخلود
ونكسب من عثرات الطريق
قوى لا تُهدّ بداب الصعود
ولكن إذا ما لبسنا الخلود
ونلنا كمال النفوس البعيد
فهل لا نملّ دوام البقاء
وهل لا نود كمالاً جديد؟

* * *

وأخيراً وليس آخراً، هذه إطلالة سريعة على عالم هذا الشاعر المبدع، وعلى حصاد هذه الحياة القصيرة الطافحة بالابداع الشعري، والذي ينهال كالغيث العميم دون أن يطرأ عليه تغيير أو تحوير، ذلك الشعر الرقيق الصادر عن نفس زكية، وهّاجة كالشهاب، ساطعة كالشمس، إنها أرحب من أن يستوعبها مقال أو تقديم، إنها نفس الشاعر الشابي ذاته الذي قال:

هذا حصادي من حقول العالم الرحب الخطير
هذا حصادي كله في يقظة العهد الأخير

* *

تنوع الثقافات ووحدة الفكر الإنساني

بقلم:
نذرة اليازجي

دخلت الى اعماق كياني باحثاً عن حقيقة فكري وأصالة رأيي، فوجدت تنوعاً من الآراء والأفكار ووحدة انسانية شاملة. وعندئذ، ادركت ان عقلي تأليف لثقافات عديدة متنوعة. ففي كياني تلتقي وجهات النظر الكثيرة، الشرقية والغربية، التي وجدتها مع نفسي، وجعلت منها حديقة تتكامل فيها أنواع الزهور، وتتألق بجمال التنوع. ومع ذلك، تركت زاوية خالية املؤها بما أضم الى حديقة فكري من الزهور الجديدة التي ستنبثق الى الوجود، او تلك الورود والرياحين التي لم اتعرف على سرها سابقاً. ولقد ادركت حقيقة امري اذ رأيت ببصيرتي ان ما تشتمل عليه حديقة فكري من أزاهير وورود لا تصير الى وحدة او لا تتكامل في انسجام ما لم اكن قادراً على اقامة تأليف بينها تتناغم في نطاقه تنوعات الروعة التي تنضوي تحت كنف الجمال الواحد وبهاء اللقاء.

في كياني تلتقي ثقافات العالم لتشكل مركزاً تتكامل فيه الوقائع الظاهرية العديدة المتضمنة في هذه الثقافات، والحقيقة الواحدة التي نشاهدها كلّما توغلنا الى اعماق الحكمة او السرية التي تتوطّد عليها القاعدة الاساسية للوجود الانساني.. في كياني تتّحد فروع المعرفة كلها، وتتصل دون ان تنفصل. ويشير هذا التصال الى توحيد الثقافات، بانواع المعرفة العالمية، في تآلف يبلغ ذروته في وعي كوني شامل.

في كياني تتآلف الثقافات المتنوعة، وفي نفسي تتناغم مفاهيم وقيم هذه الثقافات، فأحياها في داخلي. وبالاضافة الى ما زرعته في باطني وسرية جوهري، من ثقافتي العربية الرائعة الخاصة، بسطت فكري الى الثقافات الاخرى استغرق في مضامينها، وامتص رحيق رونقها، وانهل من ينابيعها الصافية. فلقد ولجت محراب الحكمة اليونانية المتمثلة في تعاليم واسرار دلفي، ومدارس الفلسفة اليونانية التي انارت سبل التفكير الانساني ورسمت صورة الحقيقة باشكالها العديدة. ودخلت بيت الحكمة الذي شاده الفكر

الصيني ومثاليته الاخلاقية، فوجدت التطبيق العملي لمفهوم الفضيلة. وطفت ارجاء المدارس الهندوسية ساعياً الى بلوغ الحقيقة المختبئة في تعاليمها، وانتقلت الى الاداب اليابانية المتمثلة في حكمة الزن استشف الرقة البالغة، والنظام الدقيق والرهافة اللطيفة الكامنة فيها. وتعمقت في دراسة الحكمة المنطوية في سرية الهرم المصري وأهرام الانكا والازتك، وابحث عن الحقيقة الكونية. وارتحلت الى الفكر الاوروبي، والامريكي، والآسيوي والافريقي، بانواعه، باحثاً عن السر الذي طالما سعيت الى الشكف عن جوهره.

تداعيت بذاكرتي الى شرقنا القديم ابحث عن خفايا ما انطوت عليه حكمته، فوجدت في غنوصيته، اي في عرفانه، وفي ايزوتيريته، اي في سرية عمقه، قمة ما توصل اليه العقل الانساني. والحفت على طلب معرفة اصول الرواقية والايبقورية اللتين تفاعلتا، كمدرستين متعارضتين، في هذا الشرق المضيء، بمقدار ما تفاعلت في بلدان حوض البحر المتوسط. ووقفت اصغي صامتاً الى جهابذة التشريع في المدارس التي تأسست في هذا الشرق العربي.

شدتني الاساطير الى رمزيتها الظاهرية وسريتها الباطنية، فنهلت، من معين الاسطورة اليونانية، والهندسوية، واليابانية والمصرية، والكنعانية، والافريقية، والامريكية الاوسطية والجنوبية المتمثلة بأساطير الازتك والانكا والهنود الحمر، والاوروبية الشمالية.. الخ. وعندما تعمقت في دراسة سريتها، تبين لي انها قامت مقام التجربة الروحية عند الاقدمين. وذهلت ان اجد في كل اسطورة العمق والسرية اللذين وجدتهما في صميم الاساطير الاخرى. ومن اساطير الشعوب التي نتهمها ظلماً بالبدائية او التخلف، كالافريقية مثلاً، تعلمت دقائق الامور، وتلقنت فلسفة الحياة في رمزيتها القائمة. ادركت ان التعمق في الفهم يجمع شتات هذه الرموز ويشدها الى حقيقة انسانية واحدة، تشير الى تنوع التعبير وحدة الغاية.

ادركت، وانا ابلغ هذا المستوى من الاطلاع والدراسة والبحث، انني امثل ثقافة عالمية تتألّق ثقافتي العربية الخاصة في وسطها، وشعرت ان الثقافات الاخرى تحيا معي وتستغرق في كياني، كما احسست ان الكتّاب والمفكّرين والفلاسفة والعلماء الاخلاقيين يكوّنون وجودي من خلال افكارهم التي تشع في داخلي. فاذا ما سئلت عن فيثاغورس تحدث هذا العالم الحكيم في أعماقي واجبا عمّا سُئلت. واذا ما سئلت عن لا وتزو تحرك هذا الحكيم في كياني، وتلألأت فضيلته التي شرحها لبني قومه. واذا ما سُئلت عن بوذا استنار في قلبي وتوهج في نفسي، واجاب عمّا سُئلت. واذا ما سئلت عن كريستوس عاينت التجلي القدسي المشخص. واذا ما دعتني فلسفة المعتزلة والتصوف الاسلامي لبّيت النداء واحترمت عظمة الوجود الانساني المحقق في حقيقة حلولية كلية الانبثاث، واعتبرت سلطة العقل. واذا ما سُئلت عن سبينوزا، وابن رشد، وزينون، وديكارت، ووليم جيمس، وسنفور، وشكسبير، وتولستوي، دوستويفسكي، وهمنغواي، وابي العلاء، والفارابي، وجلال الدين الرومي، والحلاج، والسهر وردي، وكارل ماركس، وآدم سميث، ورابعة العدوية، والحكيمة تيريزا.. الخ. تحرك كل كل واحد منهم في كياني وتحدث. وعندما يتحدث واحد من اولئك العظماء، اتحدث معه ويتحد كياني مع كيانه. وكثيراً ما تساءلت: من يتحدث في كياني؟ وما هو هذا التعبير المنطلق من أعماقي؟ أهو أنا أم هو غيري؟ وهل أنا كثرة أم وحدة؟ كثير ام واحد؟ وهل انا منقسم في ذاتي ام متحد فيها؟ وهل اتناقض مع من ألفتهم في كياني ام انسجم معهم وأتناغم مع آرائهم ومواقفهم؟ الا يعني هذا انني امثل ثقافة عالمية متنوعة، تحيا في وتمدني بسبيل الحياة والقوة والشخصية؟ وهل يتميز وجودي بالقيمة وانا اخلو من وجود وتلاقي الثقافات العالمية في كياني؟ وهل تتشكل معرفتي او مبادئي بدونها؟

علمت ان شخصيتي مركز لقاء

لجميع التيارات الفكرية، والعلمية، والادبية، والفنية والاجتماعية التي تتجه من مراكز اشعاعها لتجتمع في بؤرة هي «كياني». وعلمت انني حصيلة لقاء فروع المعرفة المتحدة في شخصي. وعلمت ايضاً ان جسدي وعقلي يؤلفان مكاناً تتركز فيه جميع القوى الحضارية التي تتضافر لتكون مني طاقة اشعاعية كبرى.

* * *

تعد هذه المقدمة الوجيزة مدخلاً رئيساً الى القضية التي اطرحها على بساط البحث. ولا تكتمل هذه المقدمة ان هي تجردت من التساؤلات التالية: ما قيمة التنوعات الثقافية ان كانت تعاني من التمزق والانقسام في داخلي؟ ما خير هذه التنوعات الثقافية ان هي حافظت على انفصالها دون اتصالها؟ وهل يمكنني ان اكون عالمي النزعة الثقافية ،واوحد فروع المعرفة في داخلي، ان كنت عاجزاً عن اقامة صلة بينها، أو تأليف يجعلها تتكامل، او تتحد، او تنسجم، لتنشيء مني شخصية متوازنة، محبة وواعية؟

يبدو لي ان القيمة التي نعزوها الى وحدة الفكر الانساني المتنوع في فروع معرفته وثقافته تكمن في الاتصالية التي نُحدثها بين التنوعات العديدة، وفي التأليف الذي نُنشئه بينها، وفي التكامل الذي نشيد منه توازناً او تناغماً في داخلنا. ويبدو لي، ان اندحار وحدة الفكر الانساني ينتج عن عدم القدرة على التوفيق بين التنوع الثقافي القائم ، الامر الذي يؤدي الى الصراع والنزاع، ويؤدي بدوره، الى التناحر الحضاري والاحتضار الفكري.

تتركز الغاية التي اسعى الى تحقيقها في التساؤلات التالية: كيف نستشف الوحدة الفكرية الانسانية عبر تنوع ثقافي واسع؟ كيف نُحدث اتصالية بين فروع المعرفة الانسانية والفكرية؟ كيف يصبح التنوع واحداً؟ كيف تكون القاعدة العلمية او القانون العلمي واحداً في اقطار العالم كلها؟ وكيف تجمع هذه القاعدة العلمية الفكر الانساني في نطاق واحد وصيغة واحدة في الوقت الذي تبدو القاعدة الثقافية المتنوعة منقسمة على ذاتها، وتحدث التفرقة بين الشعوب، والتناحر والاختلاف؟ كيف يكون القانون العلمي موحِّداً بالعقل، وتكون الثقافة موزعة ومشتِّتة بالنفس والشعور؟ وهل ان العقل يجمع ويوحد، والنفس تُقسم وتفرِّق؟

يجدر بي، قبل الاجابة عن هذه التساؤلات الموضحة، ان احاول سبر العمق المتضمن في كلمة ثقافة؟

ترتبط كلمة ثقافة، في هذا السياق، ارتباطاً مادياً ومعنوياً بكلمة حضارة. والحضارة، في هذا المجال، كلمة تتمايز، في مضمونها، عن كلمة مدنية. واذا سعينا الى ايجاد تفرقة بين الكلمتين قلنا: الحضارة تقدم وازدهار نفسي ورقي فكري وانساني، والمدنية تقدم تقني، مادي. وفي سبيل توضيح التمييز القائم بين الكلمتين نقدم المثل التالي: كان فيثاغورس متحضراً ولم يكن متمدناً. وعلى الرغم من أن فيثاغورس لم يسافر في القطار الكهربائي الحديث ولم يستقل الطائرة في تنقلاته، لكنه كان متحضراً. وان كنت ، انا من احيا في نهايات القرن العشرين، امتاز بما تقدمه التقنية الحديثة من وسائل وادوات، لكنني لا اضع نفسي في المستوى الحضاري الذي تسنم فيه فيثاغورس درجة علياً. فقد يكون فيثاغورس اكثر حضارة مني، واكون اكثر مدنية منه. اما اذا توافقت الحضارة والمدنية في انسجام وتناغم، دلّ الامر على رقيّ الكائن البشري. هذا، لأن المدنية في هذه الحالة، تقدم في وفاق مع قيم الحضارة، والحق، ان طغيان المدنية ونزوعها الى الافلات من رقابة او هيمنة الحضارة، حالة تشير الى اندحار الثقافة الانسانية وسيطرة العقل التقني الذي يتناقض مع العقل العام المشترك المعبر عن وحدة الثقافة الانسانية.

عندما نتأمل ماضي البشرية وحاضرها نعاين ثقافات عديدة تُعد روافد تصب في نهر الثقافة الانسانية الواحدة. والحق، ان الأمم، قديمها وحديثها، زودت، ومازالت تزود، هذه الثقافة الانسانية الواحدة بما قدمته او تقدمه من حضارة، وثقافة، ومعرفة وعلم. وتمثل الثقافات

العديدة باقة من الزهور او الورود المتنوعة التي يتألق جمالها في تنوعها.

نتساءل: كيف يمكننا ان نفسر وجود ثقافات عديدة وفكر انساني واحد؟

عندما اتعمق في دراسة الحضارة اجد ان الروح الانسانية، من خلال تنوعاتها الثقافية، تعبر عن حقيقتها الواحدة في التنوع. فالفكرة، او المثال، وهي المشعل المضيء، تستعمل كل حضارة اداة للتعبير عن ذاتها خلال وعي التاريخ الانساني لذاته ووجوده. لذا، تمثل كل حضارة او ثقافة مشعلاً ينير السبيل الذي تطرقه تلك الحضارة او الثقافة وهي تسعى الى تحقيق «الفكرة» المتضمنة في صلب وجودها. وليست هذه «الفكرة» أو «المثال» الا وحدة الانسانية المتمثلة في التيارات العديدة للروح في التاريخ.

عندما تبلغ الحضارة اوالثقافة اقصى نهاياتها، اي نضجها، او عندما تبلغ ذروتها، ينتقل مشعلها، او المشعل الذي تستضيء به وتضيء من خلاله، الى حضارة اخرى، وذلك لكي تظل «الفكرة» او «الروح» سائرة او منبثة في تاريخ العالم. وعندما ينتقل المشعل من امة الى امة، من حضارة الى حضارة، من ثقافة الى ثقافة، تستنير الحضار ة الجديدة بما حمله ذلك لمشعل من ثقافة وازدهار علمي وفكري واجتماعي وإنساني وروحي. وهكذا، تعد الحضارات او الثقافات ادوات تحمل مشعل الفكر الانساني عبر المراحل التي تتطور من خلالها «الفكرة» الى تعبير اشمل للانسانية يدل على اتصال العقول البشرية الخاصة ووحدة الفكر الانساني.

ولئن كان ما أذكره حقيقة كونية تشير الى ما يحمله كل رافد من روافد «نهر الانسانية» الذي يحمل تراث الانسانية بكامله، ليصب في محيط الوعي الكوني، لكنني ، ويا للأسف، اصطدم بعقبة كبرى تحول دون انتقال المشعل الحضاري، وتأدية المهمة الموكولة للثقافات المتنوعة لكي تحقق وحدة الفكر الانساني. وتتجسد هذه العقبة الكبرى في اصرار الامة على الاحتفاظ بحضارتها أو ثقافتها لذاتها، والحيلولة دون انتقالها الى امة اخرى.

وهذا يعني ان الامة «الانانية» التي تتجاهل سيرورة الفكرة في التاريخ تحاول ان تحتفظ بالمشعل الحضاري وتتناسى مسؤوليتها او دورها العالمي في تأدية ما يترتب عليها من واجب ازاء الانسانية جمعاء. والحق، ان احتفاظ امة من الامم بمشعل الثقافة الانسانية يعيق تقدم الانسان وتطوره الى مستويات اعلى من الوعي. ولا نبالغ اذا قلنا ان الخطيئة الكبرى التي تقترفها امة من الامم، امة ائتمنت على مشعل الحضارة، تكمن في محاولة احتجاز هذا المشعل لذاتها، اعتقاداً منها بان امتيازها على الامم يكمن في مثل هذا الاحتجاز او الاحتفاظ، وخوفاً منها ان يكون انتشار الحضارة، المتمثل بانتقال المشعل الحضاري، امراً يقوّض تقدمها او يحط من قدرها او ينأى بها عن مركز الحضارة.

يؤسفني ان اقول ان مثل هذه المحاولة قضية تشير الى موت الحضارة او اندحار الانسان. فالحضارة تموت، او تذبل، او تتقهقر، او تقف عقبة في سبيل التطور الصاعد، او تتضاءل عندما تحتجز امة من الامم مشعل الحضارة لذاتها.. عندئذ، تسيطر البربرية، وتعاني الانسانية من فصام الشخصية واختلال التوازن الحضاري، والنفسي، والفكري والروحي في كيان الوجود الانساني.

أتساءل: كيف ادرك الانسان الحضاري او الامة الحضارية؟

الأمة التي تحمل مشعل حضارتها، وتضيئه بشعلة الوحدة الانسانية دون ان تخضعه لذاتها وتجعله مزية خاصة بها أمة حضارية. الامة التي تعتبر ذاتها رافداً لنهر الحضارة الانسانية، امة تتميز بالثقافة الانسانية. الامة التي تدرك الدور الذي تقوم به في نطاق «الفكرة» او «المثال» أمة حضارية. ألامة التي تعلم انها ناقلة او حاملة لفكرة إنسانية واحدة. وتدرك ان عظمتها تكمن في تحقيق دورها الحضاري ونقله، كتراث عام، الى امة اخرى او امم اخرى، امة حضارية. الامة التي تدرك ان الاحتفاظ بالمشعل الحضاري لذاتها تصرّف يؤدي الى انطفاء المشعل وسيادة الظلام امة حضارية. الامة

التي لا تخاف ان تكون رافداً، ناقلاً، او اداة لفكرة انسانية اعظم واشمل امة حضارية. الامة التي تجمع في مشعلها اضاءات المشاعل السابقة، وتضيف القاً جديداً الى هذا المشعل أمة حضارية، انها أمة تسعى الى تحقيق ثقافتها الفردية من خلال مشاعل او روافد الثقافة الانسانية الواحدة التي تتلألأ بالمشاعل المضيئة وتحمل إرثاً انسانياً واحداً. وإن ما ينطبق على الامة ينطبق على الفرد، ذلك ان الفرد يستقي من مناهل ومصادر واصول ثقافة امته التي تحمل مشعل الحضارة او الحضارات الانسانية الغابرة.

يجدر بي، وقد بلغت هذا الحد من البحث، ان اطرح السؤال التالي: كيف اعلم ان ما تمتاز به حضارة حقيقة تشير الى ثقافة انسانية وعالمية؟

تقتضي الاجابة عن هذا السؤال البحث في ما ندعوه التبلور الكاذب والتبلور الصحيح. وعلى هذا الاساس، يمكنني ان اقول ان التبلور الصحيح مؤشر الى ان الحضارة لا تتصف بالمرحلية، بل تتميز بالكلاسيكية تشير الى ان الثقافة القائمة في الحضارة حقيقة لا ريب فيها، حقيقة متطورة ونامية. فقد استمت بالحقيقة والشمول في الماضي، ولا تزال تحتفظ بشمولها وحقيقتها في الحاضر، هذا ، لأنها تحدثت بشمولية الانسان والكون، ومازالت تتحدث بشموليتها. واذا يطّلع الفرد على مضامينها يجد انها تحمل قضية وجوده وتعبر عن كينونته قديماً وحديثاً. ومثل هذه الشمولية تكلمني بلغة الشعور الانساني عامة، وتحدثني بلسان الكيان النفسي والفكري الواحد الذي يتحسسه كل امرىء على وجه البسيطة... انها حقيقة قديمة - جديدة. وهكذا، تستمر هذه الثقافة الانسانية الشمولية وتتساوق مع الشعور الواعي لحقيقة الانسان بأشكاله، وانواعه واختلاف بلدانه. وعلى غير ذلك، يشير التبلور الكاذب الى ظاهرة زائفة. ففي هذه الظاهرة الزائفة تبدو خصائص الحضارة او الثقافة عالمية، لكنها تتجرد من الجوهر الانساني الواحد الذي تدور حوله جميع الفلسفات، والفنون، والاداب والعلوم.

وفي سبيل توضيح ما عبرت عنه بالتبلور الكاذب والتبلور الصحيح، اسوق المثال التالي: الشاعر، او الاديب، او الفيلسوف، او الحكيم، او عالم الاجتماع الذي يتحدث بشعور كل انسان، ويطرح القضايا الانسانية الشاملة، انسان قادر علي التحدث عن كل فكر والتعبير عن كل شعور. وعندما يقرؤه امرؤ يتنوع عنه بلغته ونمط معيشته يجد فيه قريباً او كياناً يتحدث بشعوره وقضية وجوده. وعلى الرغم من انه طرح قضية انسانية في الماضي التاريخي، أو تكلّم بلغة اخرى، لكنه بسط قضية شاملة تتصل بصميم الانسان. ويمكنني ان اضفي على هذا المفكر صفة الكلاسيكية والاستمرارية والتساوق مع الفكر الانساني عامة. وعلى غير ذلك، اجد المرء الذي يتحدث بلغة «أناه» معبراً عن رغباته وانفعالاته الخاصة واموره التي تنزع الى توكيد الذات في شتى المجالات، انساناً يعبر عن مرحلة لا تتناغم مع ما هو كوني وإنساني. ويعد هذا المرء الذي جعل من المرحلية شأنه الخاص، او الثقافة التي جعلت من مرحليتها مركز الوجود، تعبيراً عن حضارة مرحلية، هي تبلور كاذب، سيلقى نهايته قريباً وذلك لانهما لم يشكلا رافد يغذي نهر او تيار الفكر الانساني بمياه العذوبة الصافية. وهكذا، اقول: يكون التبلور كاذباً إن كان يعبّر عن فردية انسانية، ويكون صحيحاً ان كان يعبر عن شمولية انسانية. وأضيف قائلاً: المفكر الشمولي هو الحكيم الذي يعبّر عن مشاعر الناس، ويتكلم بلسانهم في كل الازمنة والامكنة، والكاتب المرحلي هو الذي يعبر عن انفعال أني تعوزه الديمومة والاستمرارية. وتتميز الفكرة الشمولية بالعمودية المتساوقة مع الافقية. فهي عمودية بمعنى انها تتحدث عن الانسان، كل انسان، وتعالج قضية وجوده. اما الافقية اللامتساوقة مع العمودية فإنها ، على الرغم من امتدادها الظاهري، لا تلامس سوى سطح الشعور الانساني، ولا تتعمق الى داخل الكيان. لذا، نرى ان الحركات التاريخية الممتدة الى آفاق

وامصار عديدة، تعود الى قوقعتها وانطوائها على ذاتها لانها عرفت الافقية دون العمودية. وتمتاز عمودية الفكرة والثقافة بانتشارا الافقي البطيء بحيث انها تتجاوز الحدود القائمة بين الامم، وتتغلّب على العوائق المصطنعة بين الناس. هكذا، انبثّت الفلسفات والافكار الشمولية والانسانية. ولا تحتاج هذه الفلسفات او الافكار الى حروب تندلع والى انتصارات تُحرز وتبلغ اقصاها في القهر، والغلبة والعنف. فمثل هذا الانتشار الافقي الناتج عن الغلبة والاجتياح حريٌ بأن يتراجع الى النقطة التي انطلق منها.. ويتلاشى في تبلوره الزائف.

إن انتقال الثقافة حدث يتحقق عن طريق استغراق الكائنات البشريةِ في مضمونها الانساني. فالثقافة تنبثّ في انتشارها الافقي والعمودي، وتتخلّل افق الفكر الانساني تماماً كما ينبث اريج الزهور والورود والرياحين، وكما يتشتت الضوء الى الوانه في مستويات اجوائه. والفكر، متى كان عميقاً ومتأصلاً في القاعدة الانسانية، ينبث افقياً في عوالم الحضارة، وذلك لان «الفكرة» أو «الروح» التي تعمل في الوجود توسع ذاتها لتكون شاملة.

استطيع ان اشبّه الفكرة الواحدة والتنوع الثقافي بدائرة تصدر عنها، او تصب فيها، اشعاعات عديدة. ونمثل هذه الاشعاعات التنوعات العديدة للفكر الانساني اذ تتجه الى مركزٍ موحّد ، هو نقطة لقاء، تتحد فيه وتعبّر عن حقيقة واحدة. ولما كانت هذه الاشعاعات تمثل انواع الثقافة من علم ، وفن وأدب، وفلسفة، وحكمة، فإنها تتجه الى المصدر الذي انبثقت منه، وهو النفس الانسانية الشاملة. هذا، لأن كل ما ينبثق منه، وهو النفس الانسانية الشاملة. هذا، لأن كل ما ينبثق من مصدر، يتجه الى نطاقه الخارجي، ليتفاعل مع العالم الخارجي، ليعود الى المصدر من جديد. فاذا كانت الحياة واحدة، والعقل واحداً، والحكمة واحدة، والعلم واحداً، والروح واحدة، فانها تتشتت عبر اشعاعاتها العديدة لتعود الى الاتحاد في دائرة الحقيقة الواحدة.

استطيع ان اشبه الفكرة الواحدة والتنوع الثقافي والفكري بالضوء الذي يتشتت الى قوس قزح. والحق، ان الِوان قوس القزح تمثل الضوء الذي تبدّد او تذرى الى تنوعاته. واذا استطعت ان اعيد هذه الالوان السبعة من خلال الموشور الذي يتشتت الضوء عبره الى تنوعاته، وجدت بانها تعود الى ما كانت عليه من اتحاد.. تعود الى الضوء الذي جمع انواع الوانه في وحدة لا تنفصم.

يمكنني ان اقول ان كل حضارة او ثقافة تمثل بؤرة تنطلق منها مكوّناتها وسماتها ومقوماتها، وتتجه الى دائرة هي ملتقى هذه السمات والمعالم، تماماً كما تتجه الوان قوس القزح رجوعاً الى الموشور لتلتقي في النور النقي الصافي الذي يوحّد الالوان في حقيقة واحدة لا لون فيها. وتمثل كل حضارة او ثقافة شعاعاً او لوناً ينطلق من موضعه ليتّحد مع الاشعاعات الاخرى المنطلقة من مراكز اخرى في وحدة فكرية شاملة.

اخيراً، استطيع ان اشبه الفكرة الواحدة والتنوع الثقافي والفكري بالمحيط الذي تتبخّر مياهه لتسقط امطاراً تشكل الانهار العديدة، الصغيرة والكبيرة. وعندما تتشكل الانهار تحمل اسماء، وتُعرف باحجام مقاديرها، وحدودها. ولسوف تفقد اسماءها، ومقاديرها وحدودها في اللحظة التي تصب في المحيط.. انها انطلقت من المحيط، وشكّلت وجوداً خاصاً بها، وحملت تراثها عائدة الى المحيط... المحيط الواحد والانهار الكثيرة.

أتساءل: كيف تتآلف الاشعاعات الحضارية والثقافية في دائرة واحدة، تتماثل مع تآلف ألوان الضوء في نور واحد صاف؟

عندما أتأمل واقع العالم الذي يتطابق وجودنا مع وجوده، أكتشف حقيقتين: الحقيقة الاولى، هي ان الثنائية الخارجية تشكل السمة الظاهرية للوجود على مستوى كوكب الارض، وان الوحدة الباطنية لهذه الثنائية تشكل الجوهر الاساسي والاصلي لهذا الوجود. فما من ثنائية أراها أو أحس بها الا وتنطوي على

حقيقة واحدة. فما الظلام والنور، والرجل والمرأة، والروح والمادة، والعقل والموضوع، والخير والشر، والبرودة والحرارة...الخ، سوى ثنائيات ظاهرية. وهكذا، يمكنني ان اقول: لا ظلام في النور، ولا مادة في الروح، ولا موضوع في العقل، ولا شر في الخير، ولا جهل في المعرفة... الخ، وذلك لان المبدأ الاساسي للوجود هو الروح، والنور، والعقل، والمعرفة...الخ. والحق يقال ان تفسير هذه الثنائية يتم في صياغة معادلة طبيعة تشير الى ان واقع وجودنا على كوكب الارض يقتضي الثنائية الظاهرية والوحدة الباطنية الجوهرية، وذلك لكي يتحقق هذا الوجود على هذا المستوى.

الحقيقة الثانية، وهي الحقيقة التي أعتمدها اساساً لحديثنا، تشير الى التعددية او التنوع الخارجي الظاهري، والى الوحدة الباطنية او الداخلية. وعندما أوجّه نظري الى عالم الخارج اجد التعددية والكثرة والتنوع، أما عندما أوجه بصيرتي الى عالم الداخل اجد الوحدة او التكامل. ففي عالم الخارج تتنوع الكائنات والاشياء والمعالم والسمات والاشكال والصور. وفي عالم الداخل تتوحّد هذه الصفات والمزايا في الفكر، وتشكل عالماً واحداً يسوده التآلف والانسجام والتناغم. فالصوت الذي يأتيني من عالم الخارج وأسمعه، يصبح صورة فكرية اوشعوراً، والشكل الذي اراه في عالم الخارج يصبح صورة فكرية او شعوراً، واللمس او الاحساس العام او الذوق...الخ، الذي يصل إليّ من عالم الخارج، يتحول الى صورة فكرية او شعور.. لقد اصبح عالم الخارج المتنوع صورة فكرية أو شعور.. لقد اصبح عالم الخارج المتنوع صورة فكرية او شعوراً في داخلي. وهكذا، يتحد عالم الخارج في عالم الداخل، وتعود الكثرة المتنوعة الى وحدتها الاصلية في الانسان.

وفي سبيل توضيح وجهة النظر هذه، اشير الى رمزين ادخلتني الى محراب سريتهما حكمة الشرق. فقد تحدثت اسطورة الوجود البدئي عن برج بابل، كما تحدثت اسطورة بدئية اخرى، هي الحكمة الهندوسية، عن رقصة شيفا. وعندما أتعمق في فهم المضمون المتأصل في هذين الرمزين أبلغ النتيجة التالية: الكثرة المتعددة في الوحدة، الوحدة المتنوعة من خلال الكثرة... الكثير في الواحد والواحد من خلال الكثير. وعندما أعيد الى هاتين الاسطورتين الغاية الاصلية من وضعهما في صورة الرمز، أقول: لم تُشر رمزية برج بابل الى التشتت والضياع، كما المعت بعض الاتجاهات الفكرية التي اعتمدت عقيدة التجزئة والتقسيم. وعلى غير ذلك، يشير برج بابل الى الوحدة... الوحدة التي تصدر عنها أنواع الموجودات، واللغات، والصور، والاشكال والمفاهيم.. الخ. فالبرج يمثل الوحدة التي تلحم الانواع والتعدديات التي تنبثق منها. ففي باطن كل تنوع وحدة، وفي باطن التعدديات وحدة. اذن، فبرج بابل يشير الى الوحدة المتكثرة، او الى الكثير المتنوع الذي يستدعي اعادة تأليفه في وحدة متكاملة لا تتصدع، ولا تؤدي الى التشتت. وما أراه في برج بابل أراه أيضاً في رقصة شيفا... الكائن الواحد الذي يرقص... وفي رقصه تصدر تنوعات الاشياء... تدور معه... تهتز معه في حلبة الوحدة... وتلعب معه لعبة الوجود... هي التعددية والكثرة الظاهرية القائمة، والوحدة الباطنية الجامعة... الوحدة من خلال الكثرة والكثرة في الوحدة.

يشير المغزى المتضمن في المثالين المطروحين الى ما يلي:

أولاً - يتميز واقع وجودنا على كوكب الارض بالتنوع الظاهري والواحدية الجوهرية.

ثانياً - يتميز واقع الحضارات والثقافات الى تنوع ظاهري وفكر واحد.

يمكنني أن أستنتج من هاتين المقولتين المقولة الهامة التالية:

لا عزلة في العالم... الثنائيات والتعدديات مظاهر للواحدية.... جميعها تتحرك في حلبة الواحد... الحضارات والثقافات مظاهر او معالم متنوعة لحقيقة واحدة... لفكر واحد... لانسانية واحدة... الوحدة تتألق في ضياء الكثرة ... الكثرة تزهو في الوان الوحدة ... الاصل

يمتد الى الفروع من أجل تجلّي الشكل المنطوي في الصورة الاصلية، والفروع تعبّر عن الاصل المختبىء في حقيقة الشيء.

أتساءل الآن: كيف أبرهن عن وجود التنوع في الوحدة، والوحدة من خلال الكثرة؟ وكيف أؤكد حقيقة ان الثقافات بالوانها كلها، تعبير لثقافة إنسانية واحدة؟ كيف تكون معالم الفكر المتنوعة ترجمة لفكر انساني واحد؟

أولاً ـ العقل العام المشترك

تشير الدراسات المعمقة الى ان مفهوم العقل قضية تطرح على المستوى الذي يمكننا أن نعاين مقوماته ومكوناته. واذا كنت اعجز عن فهم حقيقة العقل الا بعد تبيان حقيقة الذكاء، والانتباه، والاهتمام، والخيال، والتصور، والتذكر، والشعور...الخ، فإنني اقر بأن العقل كيان يتراءى لنا من خلال هذه المعالم أو الاشعاعات العديدة. ولمّا كان الفكر يتماثل مع الشعور، فإنني أتمكن من القول ان العقل شعور عالمي على مستوى الانسان والطبيعة.

يمكنني ان اتحدث عن وجود عقل عام هو شعور عام، هو احساس كلّي مشترك، أو عقل مشترك. والحق، ان جميع البشر يشتركون بهذا العقل العام او الاحساس الكلّي: جميع البشر يشعرون، جميع الناس يحسون، جميع الناس يهتمون، جميع الناس ينتبهون، جميع الناس يتخيلون، جميع الناس يتصورون، جميع الناس يتميزون بالذكاء، جميع الناس يتذكرون، جميع الناس يتداعون، جميع الناس يعقلون.

يشير هذا الاعتراف النظري بالعقل العام المشترك الى اسهام البشرية قاطبة بمعطيات واحدة. ويشير هذا الاعتراف الواقعي بالعقل العام المشترك الى انواع التفكير الحاصلة عنه. واذا كانت حقيقة الواقع تؤكد وجود قاسم مشترك بين عقول أبناء البشر، أدعوه العقل العام المشترك، فإن هذه الحقيقة ذاتها تؤكد تنوعات التعبير الفكري والشعوري لهذا العقل المشترك.

أتساءل: كيف استطيع ان أتيقن من وحدة الفكر الانساني من خلال العقل العام المشترك؟

ذكرت أن العقل العام المشترك يتجلّى في مظهرين:

١ ـ مظهر نظري يشير الى ان هذا العقل يمثل القاعدة العامة المشتركة بين الناس.

٢ ـ مظهر واقعي يشير الى فردية العقل الخاص. ولا شك ان العقل الخاص يتكوّن من المعطيات الخاصة بكل ثقافة، او حضارة، او مجتمع.

أتساءل: هل ينشأ تناقض بين العقل الخاص والعقل العام؟

ثمة تناقض ظاهري، غير حقيقي، بين نوعي العقل، وثمة تكامل بينهما. ويظهر التناقض الظاهري في اشراطات العقل الخاص عن طريق مكوناته ومقوماته الخاصة. فاذا خضع العقل الخاص لاشراطات ثقافته الخاصة، وتقيّد بالحواجز المصطنعة التي تنشئها العقول الخاصة بين بعضها، وقع تناقض، قد يكون عميقاً، بينه وبين العقل العام المشترك.

وعلى غير ذلك، ثمة قاعدة واحدة مشتركة بين العقول، تتراءى في الشعور، والاحساس، والخيال، والتصور... الخ، التي تشكل الاساس الذي يقوم عليها العقل العام. لذا، يمكننا القول ان العقل الفردي، ان كان عقل فرد واحد او عقول مجموعة من الناس، محتجزاً او محتجزة ضمن قوقعة التجمع الزائف أو التبلور الكاذب، يمتلك نصف قطر خاص به ونصف قطر آخر يمده الى العقول الاخرى.

إن امتداد العقل الفردي، بأنواع مزاياه الجمالية والفكرية والشعورية، الى نطاق العقول الفردية الاخرى امر يشير الى لقاء العقول الفردية في دائرة العقل العام المشترك. ولا يتحقق هذا اللقاء الا بخلاص العقل الفردي من اشراطاته وعوائقه الذاتية الخاصة، وامتداده الى العقول الاخرى. والحق يقال ان مثل هذا الانجاز يتم بوعي كوني يمد الفرد او الجماعة بالقدرة على تأمل مزايا العقول الاخرى التي تجمعها قاعدة انسانية وفكرية واحدة ندعوها العقل العام المشترك.

ثانياً ـ وحدة القياس الانساني.

عندما يتأمل الانسان المفكر التمايزات القائمة بين المجتمعات البشرية، يعمل جاهداً لاكتشاف القاعدة المشتركة بينها، التي تدل على عدم وجود تمايز حقيقي في جوهرها. ومع ذلك، يتساءل الانسان الواعي عن الطريقة التي تساعده على رؤية الوحدة المشتركة بين انواع التمايزات البشرية. ولا شك ان العقل الخاص الفردي المتمايز بذاتيته يقيم عوائق بين الثقافات والحضارات وحواجز تحول دون احداث هذه القاعدة الانسانية الشاملة، ويردد مع كبلينغ: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا. وعلى الرغم من الصعوبات التي ينشئها العقل الفردي الذي يمايز ذاته عن العقول الفردية الاخرى، فإن العقل العام أو العقل الواعي يبحث جاهداً عن القاسم المشترك بين جميع الانظمة الاجتماعية، ويسعى الى معاينة اللحمة التي توحد الفاعليات البشرية بأجمعها.

ينطلق العقل المفكر الواعي، أو العقل العام المشترك، في سعيه الدؤوب لمشاهدة الحقيقة الواحدة التي تجمع عقول بني البشر في صورة كلية عامة، ولما كان سعيه هذا دليلاً على ارادة حرة تتجه الى التقصي والبحث فإنه يبدأ بدراسة الانظمة الاجتماعية الخاصة بكل مجتمع. وفي هذا السعي الحثيث يتفهم المزايا الخاصة بكل مجتمع: قوانينه المتنوعة، وتشريعاته الكثيرة، وتقاليده، وطقوسه، وعاداته، ونظامه الاقتصادي...الخ. وبعد ان ينتهي هذا العقل المفكر الواعي من دراسة جميع الانظمة الاجتماعية يخلص الى نتيجة حاسمة تتمثل في عجزه عن اقامة وحدة قياس عامة يستخلصها من هذه الانظمة، هذا، لأن مثل هذا السعي سيؤدي به الى فوضى التقييم وتشتت الفكر.

ولما كان العقل المفكر الواعي يرفض الاستسلام لاشراطات وجوده المجتمعي المحتجز في الأنا التجمعية، فإنه يعيد التأمل في دراسته ليصل الى قانون واحد جامع، او قاعدة مشتركة، تتوطد عليها وحدة الفكر الانساني. ان هذا العقل المفكر الواعي يبحث عن وحدة قياس... وفي لحظة من لحظات الاستغراق في حقيقة وجوده يدرك ان السعي الى وحدة القياس لا يتحقق في دراسة الانظمة الاجتماعية المختلفة التي تؤدي الى تناقض حقيقي او ظاهري، بل يتحقق في دراسة الانسان ذاته الذي يعتبر القياس الاساسي لكل شيء، والمعيار الجوهري للوحدة الانسانية. وعندئذ، يعمد العقل المفكر الواعي الى تشريح الجسد الانساني وتبصر عظمة الدماغ.

يشير تشريح الدماغ الانساني والجسد الانسانين الى وحدة القياس البشري، والى وجود معيار واحد لجميع البشر هو وحدة الفكر ووحدة النفس. ومتى بلغ العقل المفكر الواعي هذا الحد، أدرك ان المقياس الواحد او الوحدة التي يسعى اليها موجودة فيه. وعندئذ، يقف من البُنى الاجتماعية الاخرى موقف التفهم والوعي... يدرك ان جميع البُنى الانسانية محاولات فردية تسعى الى تحقيق لقاء على المستوى الانساني الكلّي... ويعي ان تنوع هذه البُنى لا يشير الى التناقض، وذلك لان كل بنية تسعى الى التحقيق الذاتي لوجودها من خلال جملتها وبيئتها. وفي هذه اللحظة التأملية، يفهم العقل المفكر الواعي ان جميع الاشياء تعبيرات وتمثيلات لمعيار انساني واحد يقف منها موقف المحب. ويشاهد روعته في ضوء المقياس الواحد... ويدرك وحدة القياس وتعدّد انواع التعبير.

ثالثاً ـ العقل الانتقائي:

لا يُعد العقل الفردي المتمايز بذاتيته الخاصة والمشروط بمقوّمات أناه عقلاً انتقائياً. وعلى غير ذلك، يعد العقل المفكر الواعي، العقل العام، عقلاً انتقائياً.

يتميز العقل الانتقائي بأنه عقل توحيدي او تكاملي، ويتصف بوحدة القياس والتقييم والمعايرة... انه يوحد او يؤلف التيارات الفكرية العديدة في ذاته. ولما كان العقل الانتقائي غير مشروط بتمايزه الخاص، فإنه يستطيع ان يشاهد هذا الجمال الواحد في أنواعه وتعدداته، والحقيقة الواحدة في وقائعها الكثيرة، والانسان الواحد في أنواعه، والانسانية الواحدة في تنوعات المجتمعات البشرية.

والحق يقال، ان العقل الانتقائي لا يجد خلاص العالم في ثقافة واحدة خاصة، او حضارة واحدة، او عقيدة واحدة خاصة.

يشبّه العقل الانتقائي بحديقة واسعة تزرع فيها زهور وورود العالم كلها. وفي نطاق هذه الحديقة تجتمع تنوعات الازاهير والورود. وتُبقي هذه الحديقة على وجود فسحة قابلة لاحتواء نوع جديد من الزهور يُضاف الى التنوعات المتوافرة. وتشير هذه الحديقة الشاملة الى ان جمال التنوع اكثر روعة وبهاء من جمال التفرّد. ويمكننا ان نستشف جمال التنوع في تلك الالوان العديدة والاشكال المتنوعة التي تمتلىء بها حديقة حياتنا وفكرنا وانسانيتنا.

تمثل هذه الحديقة التي تحفل بازاهير العالم المتجمعة من اقطار عديدة واقاليم كثيرة العقل الانتقائي. ويعتمد العقل الانتقائي في جوهره على أساسين: أولهما، هو ان الحقيقة الانسانية او الكلّية ليست حكراً لمبدأ واحد، أو عقيدة واحدة او حضارة واحدة، او امة واحدة. ثانيهما، أن الفكر المؤلف من أنواع الافكار المنتقات، والمكون من مجموعة تجليات فكرية، يتلألأ بجمال رائع أخّاذ وبهاء خلاب.

يدرك العقل الانتقائي ان جميع الاشجار التي تحفل بالمبادىء والثقافات تحمل غصناً أو غصنين، او اكثر من شجرة الحقيقة الانسانية والكونية. ويعمد العقل الانتقائي الى اختيار ذلك الغصن الذي ينسجم مع الحقيقة الكونية والانسانية وضمّه الى شجرة الحقيقة الانسانية الكبرى المتمثلة في وحدة الكيان الانساني. وعلى الرغم من أن العقل الانساني الواعي، وهو شجرة كونية وإنسانية شاملة، يضم اليه جميع الفروع الكونية والانسانية التي انتقاها من الاشجار الاخرى، لكنه يحتفظ، على شجرته الخاصة، بغصن قائد يشير الى تنوعه ويحافظ على كيانه، الأمر الذي يعني التقاء الخاص مع العام، والمحافظة على الخاص.

يتأمل العقل الانتقائي مبادىء العالم كلها، بتياراتها الفكرية العديدة، فيختار منها ، بعد وعي عميق، ذلك المبدأ او الفكرة التي تنسجم مع جوهره الكلّي وقاعدته الشمولية، ويؤلف ممّا يجمعه باقة فكرية متنوعة تزهو بجمالها وروعتها. وهكذا، يُطل العقل الانتقائي على جميع التيارات الفكرية، يدرسها بوعي عميق منفتح، وينتقي، ويؤلف ويوحد. ومع ذلك، يحتفظ العقل الانتقائي بكيانه المبدئي، ووجوده الثقافي الذي لا يتناقض مع الوجودات الثقافية الاخرى. وعندئذ، يجتمع العالم كله فيه، فيحبه ويطوره الى مستويات اعلى من الوعي... ولا يتناقض معه... ويلتقي مع كل ما هو شامل وعام في الحضارات او الثقافات الاخرى دون تناحر، او تعارض، او عدوان.

رابعاً ـ العقل المنفتح:

يمكنني ان اتحدّث، على نحو رمزي، عن وجود نوعين للحضارة: نوع يشير الى الانفتاح، ونوع آخر يشير الى الانغلاق... ثمة حضارة منفتحة وحضارة مغلقة. ويمكنني ان اختصر كلامي قائلاً: ان الحضارة المنفتحة حاضرة تأخذ وتعطي، تقتبس وتؤلف، وتمنح الحضارات الاخرى ما بلغته من حكمة وعلم ومعرفة... هي حاضرة تتفاعل مع الثقافات الاخرى، وتعلم ان موهبتها منوطة بما تقدمه لخير الانسانية، وان مشعلها سينتقل الى شعوب اخرى تستضيء بنوره، وانها تمثل مرحلة من مراحل التعبير العام «للفكرة» التي تتخلّل التاريخ الارضي. أما الحضارة المغلقة ـ هذا، إن كنت استطيع ان اسمي الانغلاق حاضرة ـ فهي حضارة منكفئة على ذاتها تحاول ان تتمايز عن غيرها معلنة رفضها لقانون التواكل العام، والاعتماد المتبادل، والتفاعل الصميم الذي ينشأ بين مجموعة الفاعليات البشرية على المستوى الكوني.

يعد العقل المنفتح عقلاً انتقائياً يتميز بالتحمل. ونقصد بكلمة التحمل ذلك الموقف العقلي الواعي ازاء التيارات

الفكرية والثقافية الاخرى. اذن، فالعقل المتحمل هو ذلك العقل الذي يتميز بصفة البحث عن الحقيقة في كل شيء، والحق، ان هذا البحث عن الحقيقة المختبئة في جوهر الاشياء والمبادئ يكسبه صفة الانتقاء التي تمده بالقدرة على رؤية حقيقته في الحقائق الاخرى، او في بعض مضامينها... انه عقل غير مشروط بفرديته الذاتية التي تحتجزه في قوقعة الأنا... إنه عقل شمولي... عقل محب.

وكما ذكرت سابقاً، يقر الواقع البشري بتناغم ما هو خاص مع ما هو عام. فإن كنّا نمتلك عقولاً فردية، فلكي نحافظ على الكيان الفردي. وإن كان واقع العالم يشير الى وجود عقل عام، او كلّي، او شامل، فلكي ينسجم العقل الفردي مع العقل العام. وعندئذ، يحدث تعايش بين مفاهيمنا الفردية ومفاهيمنا الشمولية. وإن افضل مثال ينطبق على هذه القضية المطروحة استقيه من الجسد الانساني. فالجسد الانساني يمثل كياناً واحداً تتفاعل فيه اعضاء كثيرة. ويشكل كل عضو بؤرة خاصة تعمل لذاتها كما تعمل للاعضاء الاخرى، وبالتالي للجسد كله. فبقدر ما يعمل العضو لذاته يعمل لكليّة الكيان الجسدي. ونحن نعلم ان تعايش الاعضاء ناتج عن تفاعل الاعضاء مع بعضها ضمن وحدة تحييها في تناسق ووئام.

هكذا، يتعايش العقل المنفتح، فردياً كان ام جماعياً، مع العقول الاخرى التي تعتبر مشاعل تضيء طريق البشرية. وعندما يتأمل هذا العقل المنفتح مواطن الجمال في المبادئ الاخرى او انواع التعبيرات الفكرية، والجمالية، والفنية، والعلمية... الخ، يجد انها تشير الى الحقيقة وذلك لانها اشعاعات او سُبل تؤدي، في النهاية، الى دائرة الحياة الجامعة والشاملة.

خامساً ـ الاصول الواحدة:

أولاً ـ الاصول الاسطورية الواحدة:

عندما اعود الى الفترة التاريخية السابقة للفلسفة اجد الفكر يعبّر عن ذاته في حكمة صيغت على نحو اسطوري. ويجدر بي، وأنا اتوغل الى اعماق الفكر الانساني السابق للتصنيف الفلسفي الذي اعتمد الثنائية، ثنائية الفكر والموضوع، او النهج الفكري الذي نعرفه اليوم، ان اتعرّف على الاصول الواحدة للفكر الانساني. وفي هذا الصدد، التزم ببحث الرمزية التي صيغت بها الحكمة الاسطورية فأقول: الرمز اشارة الى السرّ، والاسطورة حكمة الاقدمين.

واذا توخينا المزيد من الوضوح والتبسيط عمدت الى شرح المضمون الكامن في الرمز والسر، والحكمة والاسطورة. ولما كان الرمز يشير الى السرّ فإنني أقول بان حكمة الاقدمين ـ اي ديانتهم ـ تمثلت في اسرار عبّرت عن الحكمة البدئية للوجود الانساني. ولما كان السرّ يعني العمق، فإن الرمز يشير الى الحكمة القائمة في الصياغات الاسطورية. وفي هذا الصدد، يمكنني ان اقول ان العقل الانساني لم يعان من التشتت والضياع والثنائية والتعددية في تلك الفترة السابقة، الامر الذي يجعلني اعلن ان برج بابل ـ باب ايل ـ كان رمز الوحدة السريّة، وان رقصة شيفا كانت الوحدة الجامعة للكثرة. وهكذا، يمكنني أن أبيّن ان الاسطورة هي حكمة مطروحة على صورة او هيئة الرمز... والرمز تعبير عن سرية واحدة غير مجزأة او مشتتة.

تقودني هذه العبارة الاخيرة الى الاعتراف بان اصول المعتقدات البشرية، ان الحكمة الانسانية المعبّر عنها بالرمز كانت واحدة في اساسها، تمثل جذع شجرة التفكير الانساني. لذلك اجد اصلاً واحداً او اصولاً واحدة للفكر الاسطوري. والحق يقال، ان تعمقي في دراسة الاسطورة يريني القاعدة الاساسية الواحدة والاصل الوحيد. وعلى هذا الاساس، يجدر بي ان ادرس الاسطورة في صيغة المفرد واتجنّب دراستها في صيغة الجمع. وبالفعل، لم تكن هنالك، في المرحلة السابقة للفلسفة، الا اسطورة واحدة تمّ التعبير عنها بلغة

الرمز. اذن، هنالك اسطورة كونية واحدة، او حكمة شاملة واحدة، صيغت برموز عديدة متنوعة، غير متناقضة.

استطيع ان اقول ان تعمقي في دراسة الاساطير بصيغة الجمع يقودني الى معرفة الاصل الواحد او الاصول الواحدة للسريّة القائمة في الرمزية الاسطورية. وعندما أتأمل ما جاء في اساطير الانكا، والأزتك، واساطير القبائل النوردية - الشمالية، واساطير اليونان، واساطير الشرق الاوسط، واساطير افريقيا وآسيا وامريكا... الخ، اجد انها تشترك بسرية واحدة معبّر عنها برموز متنوعة. ولما كان السر يعني العمق، فقد دلّني هذا العمق او التبصر التأملي في التأويل والتقصّي الى تماثل الروايات، والاحاديث، والاحداث، والوقائع، والاساليب والخلفيات. وعندئذ، ادرك ان الفكر الانساني لم يكن قد تعرّض للتشتت والضياع، ولم يكن برج بابل - باب ايل - او رقصة شيفا تعبيراً للبلبلة والتشويش، بل تعبيراً للحكمة. ويؤسفني ان اقول ان الكتّاب والمفكرين الذين يتحدثون او يكتبون عن الاساطير يخطئون في تفسيرها لانهم يلامسون رمزيتها دون سريتها. وإن ملامسة الرمزية تشير الى السطحية وتنفي التوغل الى العمق - السر، الامر الذي يسيء الى الحكمة الكامنة في الاسطورة. فالحكمة الكائنة في الاسطورة، والمعبر عنها بالرمز، تتطلب من الدارس تعمقاً في سريّة الحكمة.

يجدر بي، وانا اشدّد على التماثل القائم في الاساطير، وأؤكد على الوحدة اللاحمة للرموز المعبّرة المتنوعة ان اكتفي بتقديم مثلين، والالماع الي مثل ثالث: المثل الاول يشير الى التكامل القائم في كتاب الموتى المصري وكتاب الموتى التيبيتي. والمثل الثاني يشير الى الحكمة المتضمنة في رمزية الطوفان التي اجدها في الاساطير القديمة بأجمعها. لقد تحدثت كل ميثولوجيا عن الطوفان، هذا، لأن التعمق في دراسة هذه الحكمة - الاسطورة يشير الى الادوار التي يجتازها كوكب الارض من خلال ديمومته. والحق، ان نظرية الادوار حقيقة راسخة في واقع كوكبنا. واذا كانت الادوار تُشير الى خليقة جديدة، تشير بدورها، الى نهاية دور وانبثاق دور جديد، علمنا ان عقيدة البعث المتأصلة في غالبية الاساطير تعود الى أصل واحد، وان نظرية الخلق الملازمة للفكر الاسطوري تعود الى مفهوم عالمي واحد. هكذا، اعترف بوجود حكمة كونية او عالمية واحدة، اسطورة واحدة، برموز متنوعة واساليب عديدة.

ثانياً - الاصول اللغوية الواحدة:

كما ان للاساطير اصولاً واحدة، كذلك للغات اصول واحدة. وكما ان الاساطير اغصان وفروع تتصل بشجرة الحكمة البدئية الواحدة، كذلك تشكل اللّغات، على الرغم من تباينها، شجرة واحدة، هي اصل واحد، وفروعاً واغصاناً عديدة. ولئن كانت الصعوبة تكمن في معرفة الاصل الواحد - ذلك لان العودة الى اصل الشيء امر غاية في الدقة والبحث والتقصي، الامر الذي يجعل الاصل او الاصول الاولية تغيب عن ساحة رؤيتنا - لكنني استطيع ان استشف هذا الاصل الواحد على مستويين:

أولاً - مستوى اللغات المتقاربة ضمن نطاق جغرافي معين - اللغة الهيروغليفية، والمصرية القديمة واليونانية القديمة، اللغة السريانية القديمة والعربية واليونانية... اللغة الاصل التي سادت في اقليم واسع الاطراف، وتنوعت الى لهجات هي لغات مشتقة من لغة واحدة.

ثانياً - مستوى اللغات المتباعدة. والحق يقال إنه لا يمكنني ان اجد العلاقة او القرابة بين هذه اللغات الا من خلال العمق القائم في الاساطير. لذا، كانت الاساطير دليلنا الى وجود لغة بدئية واحدة تتقارب كلماتها، هي تصور عقلي بدئي، تتنوع الى لغات تتوافق مع المقومات التي تجهزنا بها طبيعة كل اقليم

او منطقة.

في هذه الصوة الاولية اشاهد العلاقة الوطيدة القائمة بين الاسطورة واللغة، واجد الاصول التعبيرية المتنوعة للفكر الانساني ووحدة الحكمة او السرّ المعبرِ عنهما بالرموز. وفي عصرنا الحالي، ينكبّ العديد من علماء الفيولوجيا ـ فلسفة اللغة ـ، في اقطار العالم كلها، على دراسة اصول اللغة التي يبحثون فيها، ويتقصّون اصول الكلمات التي دخلتها واصبحت في صلب تفكيرها. ولقد توصل اولئك الباحثون الى أمرين:

أولاً ـ الاصول المتعددة للغة الواحدة.

ثانياً ـ الكلمات المقتبسة من اللغات الاخرى التي اصبحت قائمة في صميم اللغة المدروسة.

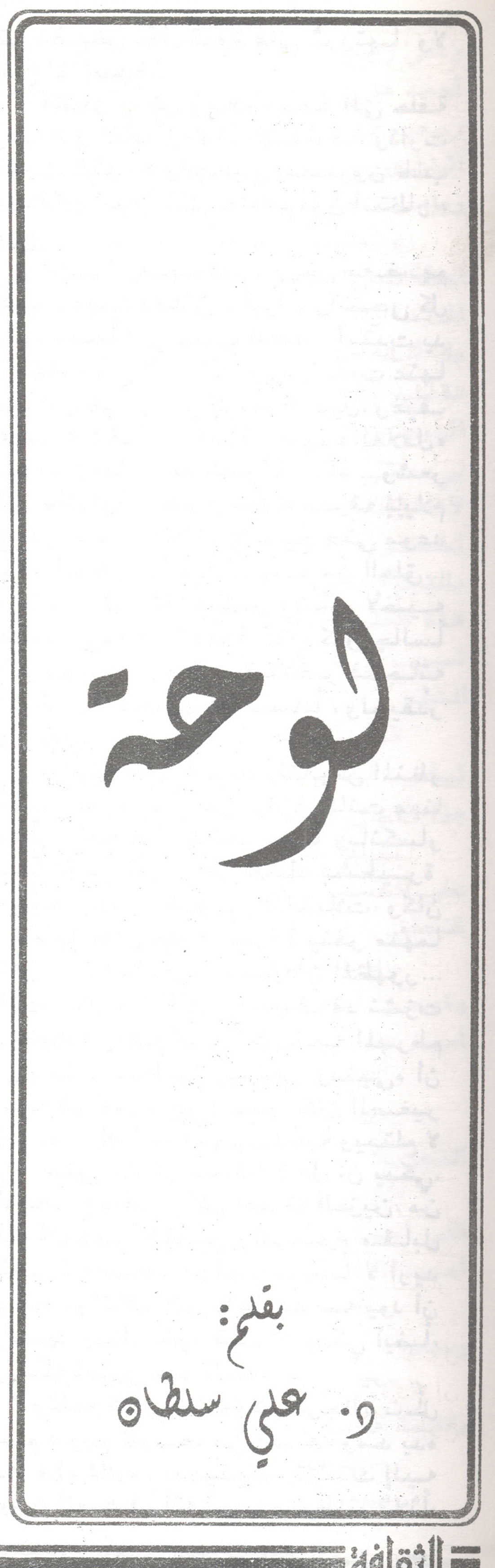
عندما يتعمق الدارسون في الاصول الفكرية، والفقهية، والفلسفية والاشتقاقية للغة معينة، يجدون انها ترتبط بالاصول الفكرية للغات المتصلة بها او اللغات البعيدة التي لا تشترك معها في جذع واحد. والحق، ان مثل هذا الارتباط يقع في نطاق فلسفة اللغة، الفيلولوجيا، اكثر مما يقع في نطاق الاشتقاق اللغوي، الاتيمولوجي. وهكذا، يمكنني ان اقول ان علم اللغات يشير الى وجود شجرة بدئية واحدة للغة تذرّت منها فروع هي لغات وثيقة الارتباط بالشجرة الام، او لهجات قريبة. وعلى هذا الاساس، يمكنني ان اخلص الى نتيجة هي: ان القرابة الفكرية والقرابة اللغوية وثيقتا الارتباط بحيث ان الاصول الفكرية تكاد تكون واحدة في العالم اجمع.

سادساً ـ العالم نسيج واحد متداخل خيوط الحياكة

ثمة تماثل حقيقي بين الانسان وكوكب الارض. فكما ان الانسان يتميز بجسد يجمع في نطاق وحدته اعضاء كثيرة متنوعة، كذلك يتميز كوكب الارض بجسد يجمع في نطاق وحدته الامم والشعوب المتنوعة. وكما ان كل عضو في الجسد الانساني يتصف بموهبة معينة أو يُسهم بوظيفة معينة، كذلك يتصف كل عضو في الجسد الارضي بموهبة معينة. فالامم، باختلاف انواعها، واقاليمها، تتميز عن بعضها بما وهبته الطبيعة لها من مقومات العيش التي تعتبرها الأمة الموهوبة بها وسيلة الاتصال مع الامم الاخرى. وعلى هذا الاساس، تتوافر الموارد المتنوعة في الاقاليم العديدة على المستوى الاقتصادي، والمستوى الثقافي، والفكري، والفنّي، والعلمي والانساني. وتتنوع هذه الموارد او المواهب ليقوم تبادل ودّي، متساوٍ ومتوازن بين جميع الامم والشعوب. وهكذا، تزود كل أمة الامم الاخرى بمواهبها الخاصة، وتتصل بها من خلال هذا الامتداد الطبيعي، والاقتصادي، والفني والثقافي... الخ.

يمكنني ان استنتج وجود صلة بين الشعوب تُرد الى ما تقدمه كل امة من اجل احياء الحضارة الانسانية الشاملة. والحق، ان استدارة كوكب الارض حكمة فرضتها الطبيعة من اجل تلاقي الشعوب.

ومن جهة اخرى، اجد ان الامم والبلدان تسير باتجاه المزيد من التلاقي والاتصال، وعلى الرغم من وجود التيارات الانعزالية التي تسعى الى احداث شرخ في اللحمة البشرية المستغرقة في محبة الانسان للانسان، والاوطان للاوطان، فإن الامم تندفع بفعل طاقة داخلية موحدة الى مزيد من التلاقي والاتصال. هذا، لأن طبيعة الوجود الارضي تفرض هذا اللقاء او التوحيد او التكامل. وفي الوقت الحاضر، يبذل حكماء وعلماء الربع الاخير من القرن العشرين قصارى جهدهم للكشف عن حقيقة هذا التلاقي والاتصال على صعيد الطبيعة، اي العلم، وعلى صعيد علم الاجتماع، وعلم السياسة، وعلم النفس. فهم ينادون بوحدة الفكر الانساني، ووحدة الوجود الانساني، ويعارضون الميول والنزعات التي تهدم صرح هذه الوحدة. إن إشعاع الثقافات قضية كونية تطرح الغايات العظمى للوجود الانساني.



يمشيان في الشارع الجديد الجميل، سامر وأخوه الصغير تمام، يفتشان عن مكان خال يعرضان فيه أشياءهما التي حملاها طويلاً بأيديهما. لكن البضاعة غير البضاعة، والمقام لا يناسب المقام، وواجهات الدكاكين الزجاجية العريضة المزخرفة والمطرزة بالنحاس والمعادن اللماعة والثريات الساطعة كانت تبدو لهما بهية مشعة كالشمس وكانت أعلى كثيراً تطل عليهما من حالق، كأنها تلح أن يمضيا سريعاً من أمامها، فقد تجاوزت نظراتهما حد المعقول والمقبول. ومضيا ييممان طرف الشارع إذ لمحا حجارة ومواد بناء أمام عمارة مازالت في طور صعودها الأول نحو الأعلى. وإذ اقتربا شعرا بالاطمئنان والإلفة. جماعة ملتفة من الشباب والرجال بثياب فقيرة شبيهة بما يلبسان. حجار ورمل، لا رخام ولا زجاج فؤوس ومعاول وقفف، لا انوار ولا ثريات: وجوه بائسة تستعرض المارة واحداً واحداً، فلعل أحدهم يطلب حمالاً أو بناءً أو رمالاً أو طلباً للأشغال الشاقة.

واقتربا أكثر، وهب أحد الشباب واقفاً ينادي بأعلى صوته: أستاذ سامر، استاذ سامر... وتعانقا، وجاءت المودة في موعدها المضروب كما يجيء السلام إلى النفس المضطربة بعد طول معاناة.

- أهلاً بك يا أستاذ سامر، أراك في المدينة، متى تركت القرية؟

أجابه بارتياح: بالأمس، وهذا أخي الصغير، لا شك تعرفه.. رحب به وقبله.. لكن قل لي ، من هؤلاء الرجال وماذا تفعلون هنا؟

هز أحمد رأسه طويلاً : نعمل، ننتظر من يستأجرنا، نرفع الاحمال والاثقال ومواد البناء... وهؤلاء الرجال من ترى، جميعهم من القرى المجاورة، لقريتنا، جمعتنا الغربة والغاية الواحدة، العمل وجمع بعض المال الشاق.. وأنت وهذه اللوحات وأطباق القش... قل لي...

- خطر يوماً ببالي أن اتي المدينة لأبيع بعض رسومي، وأنا أرسم ، ولا أدري إن كنت تعرف، جئت بها، وحملتني أمي بعض الأطباق التي صنعتها، سمعت أنها تباع في المدينة... وتعلق بي أخي فاتى....

إني أبحث عن مكان خال على رصيف أعرض فيه أشيائي.

هتف أحمد:

ـ دقيقة، وتلفت سريعاً هنا وهناك، تناول اللوحات وخطا مسافة قصيرة عند زاوية العمارة الناشئة، وصف اللوحات على ظهر الجدار.. هنا .. هنا .... هذا مكان عظيم، ساظل الى جانبك «إن شاء الله تبيع وتتوفق..

جلسوا عند طرف الجدار، عيونهم ترقب الأشياء والسيارات والاشخاص، والأرجل تعبر تباعاً. كل ينتظر رجلاً بعينه، لكن دون وعد. تحدق بعض العيون إلى الرسوم والأطباق سريعاً دون توقف .. لا بأس، مقدمة خير .. يتوقف بعضهم، يمعن النظر، ثم يتابع السير، لا شك، فالخير قريب...

ـ هل حددت الأسعار يا أستاذ سامر؟

ـ لا والله ..

ـ يجب أن تفعل، قد يسأل أحدهم. كيف ستبيع!

ـ أقدر وأبيع..

ـ اطلب زيادة .. ثم تتنازل .. كلهم يبيعون هكذا في المدينة.

ـ أحاول...

ـ لا تخجل .. وإلا سوف تخسر

ـ هذه أول مرة ....

ـ ستتعلم .. حدث معنا في أيامنا الأولى، خجلنا واشتغلنا (بالناموس)، لكن تعلمنا، نجادل ونفاصل ونتفق.. نطلب زيادة كبيرة ونتنازل...

مرت فتاتان توقفتا أمام الرسوم تتأملان، همست واحدة للأخرى، انظري جيداً لتلك اللوحة، ألا يمكن أن تناسب مشروعاً مع بعض التعديل والاتقان لهذه السنة، هزت الاخرى رأسها، يمكن ....

سألت الأولى، كم ثمن هذه اللوحة؟

تردد وجالت عيناه برأسه:

ـ بـ.. بـ.. بثلاثمائة ليرة.

أمسكت يد زميلتها وانصرفتا دون كلام. ومضت ساعات بين التفات ونظر وتأمل وسؤال وانصراف.. تساؤل كان يطرق رأس سامر كلما مر عابر أو راغب بالشراء ولم يشتر، عجيبة هذه المدينة التي تقبض بكل قوة على ثروتها، ولا يرتاح لها إصبع...

انتقل بعض زملاء أحمد الى حلقة الرسوم والاطباق، وتم التعارف، ودارت أحاديث كثيرة والجميع ينتظرون طلب عمل، لكن شيئاً آخر جاءهم دون انتظار، الجوع.

اخذوا يتململون، نهض بعضهم وذهب... وبعد دقائق عادوا، وانتحى كل منهم موضعاً الى جانب الجدار. امتدت يد الى لفافة في اليد الاخرى، وخلعت عنها ثوبها الورقي، وظهر الجسم الجميل، رغيف ملفوف، لا شك أنه يضم في سره «الفلافل» وشيئاً من المتممات الحارقة.... آه .. وشعر سامر بالمرارة: وكانت معدته تحرقه بإيلام ملح، لم يحسب انه قد لا يبيع حتى موعد هتاف البطن يطلب النجدة من الحلق... هو يتحمل، لكنه كان يتألم لأخيه الصغير... وعذر أحمداً الذي كان جالساً كالصنم الميت. لا شك فالآخر فاجأته الضيافة ولم يحسب لها حساباً، ولم يقدر زبون ذلك.

والتفت الى أخيه، وانغرس المنظر كالخنجر في قلبه، حدق بقوة، كانت عينا الصغير تحملقان بعنف حيناً وبانكسار حيناً آخر، إلى رجل ممسك بشطيرة مزدوجة بيدين مفتولتي العضلات، وكان صدغاه يتبعان فكيه بحركة ينفر منهما كرتان ثم تختفيان، ثم تعودان للظهور... وكانت نتف من الأكل والألياف قد نشزت من ثنياته وأضراسه، لكن فمه المبرطم كان يجول ويطحن ويمتص، وينبىء أن صاحبه قد ألم به جوع لئيم. كان الصغير يرى ويتحرك فمه ويسيل لعابه ويبتلع لا شيء، حتى كاد أن يسقط قبل أن يبكي. وكاد يصرخ سامر بأعلى صوته الحزين، من يأخذ كل هذه الاطباق والرسوم مقابل شطيرة واحدة، واحدة، وأنا لا أريد شيئاً... وانكفأ الى داخل نفسه يود أن يحاسبها ومثل أخيه قبل أن يبكي أيضاً، لكن مثله تجاوز عمر البكاء...

وتقدم شاب من هؤلاء الرجال، ناحل الجسم مريح الوجه، من أحمد، ومد يده إليه: هذه لك ولصديقيك، تلفتت إليه العيون الست فرأته في يده شطائر ثلاثاً،

وعلى وجهه ابتسامة ورجاء . انفرج فم أحمد عن ابتسامة طيبة، وشكر له كرمه ومعروفه، وتناول الشطائر، وناول بدوره اثنتين للاثنين. وبتردد دون كلام ، وبإصرار منه مؤدب، تناولا وجبة الغداء.

وتعلقت بي يا أخي الصغير في آخر لحظة قبل السفر، وقلت لك إني ذاهب الى المدينة وأنا لا أعرفها، وبكيت ، وأمسكت بك أمك، لكنك انفلت، وأنا كبير أتدبر نفسي وأصبر، وأنت مازلت غضاً على الصبر والجوع والعذاب. لكنك التصقت بي حتى كدت لا تنفصل. ماذا سنقول لأمنا، ألم تسمع قولها وهي توصينا أن نشتري لها ثوباً و.... إذا أكرمنا الله بالبيع بسعر جيد.. هل سأروي لها حديث هذه الجلسة ذات الشجون التي كدت تسبب لي فيها الانهيار لولا هذا الشاب الشهم...

قال أحمد إذ انتهوا من الأكل: لا تيأس ، فما زال أمامنا ساعات طويلة في هذا النهار، ومازال أمامنا أنهر كثيرة.....

أجابه بمرارة: يبدو أني غير قادر على الصمود أمام تلك الآمال التي لا تتحقق.

- ستتحقق بإذن الله ، اصبر ... وتبصَّر، أنت تعرض بضاعة جميلة، وأنا أعرض جسمي....

- كان الله في عونك.

- إنه لا ينسانا طويلاً، عرفت ذلك من التجربة.

انتظرا، واستعدا لانتظار أطول. قلب أحمد الرسوم ، كانت حقاً جميلة، أعجبته قال:

- حلوة، هل قضيت كثيراً في رسمها..

- لا .. لقد فعلت لأني أهوى الرسم، ولم يخطر ببالي بيعها...

- إنك فنان....

- هذه شهادة طيبة..

ضحك أحمد وقال:

- من عتال...

وقفت سيارة قبالة اللوحات، ونزل منها رجل واقترب من أحمد، وطلب منه العمل لديه مع عدد آخر من زملائه.. سيارة رمل الى الطابق الثالث... وتجمع العمال، وكل يود أن يشترك، اختار أحمد زملاء، ومنهم ذلك الشاب النحيف الكريم... وخطرت بباله فكرة، لكنه استحيا....

وتطلع الى سامر.. وبالرغم من خجله، قال في نفسه لويذهب معنا سامر، ويظل أخوه مع اللوحات... وساعتان ويعود... والعمل عمل وليس عيباً. ودون أن ينطق فهم سامر ما جال في خاطره.

وقال له ، أنا موافق...

تحرج أحمد وسأل: موافق، على ماذا؟

- على ماكنت تود أن تطرحه علي... على العمل معك ... نقل الرمل...

- لكنه صعب...

- لن يكون أصعب من الصبر والانتظار ...

غابوا كأشياء متراكمة فوق بعضها في جوف السيارة، وصلوا وتفككوا عن بعضهم ونزلوا. كانت كتلة رمل عالية في انتظارهم أمام عمارة جديدة. أشفق أحمد على صديقه، وسلمه الرفش: أنت تملأ به الأكياس ونحن نحمل. لم يعترض أحد على توفير بعض التعب على الرسام... حمل الرفش، وكان أثقل بكثير من الريشة، وانطلقت الأيدي والأجسام والأرجل تتحرك: وجرح الرمل الأجساد، وصبغ الوجوه والأيدي بطحين أبيض، وتشنجت العضلات وتدملت الأكف... ثم تناولت الأجر الذي يكفي عار الجوع والشطائر..

وعادت الفتاتان مرة اخرى، وتأملتا من جديد الصورة ذاتها، ثم قلبتا الصور الأخرى، كانتا حائرتين بين الفن والعادية،

لكن الصورة ظلت تفرض نفسها على عيني الفتاة، كان الصغير تمام يتطلع اليها باعجاب: الثياب الحلوة والنظافة والوجهين الأبيضين الجميلين. سألته الأولى:

ـ أين الشاب صاحب الرسوم؟

قال ببراءة:

ـ ذهب مع العمال

ـ لماذا ذهب؟

ـ للعمل، سوف ينقل الرمل معهم

ـ وهذه الرسوم من رسمها؟

ـ هو.

وتلفتت البنتان إلى بعضهما باندهاش. ومن بعيد ظهر الرجال عائدين، وصرخ الصبي، ها هم، ها هو ... ولما وصلوا .. لا شك تركوا في نفس من رأوهم مزيجاً من الحزن والضحك... فما زالت الوجوه معفرة بالبياض رغم ما أزيل عنها منه... وما زالت الأجساد منهكة. جلسوا جميعاً حالما وصلوا، إلا سامراً. وقف إلى صف اللوحة قبالة الفتاتين. غالبتا ضحكة رنانة، ابتسمتا وابتسم. قالت له الفتاة: أود شراء تلك اللوحة.

قال: اشتريها.

ـ بكم؟

ـ بالذي تريدين.

ـ لكنك طلبت ثلاثمائة ليرة ثمناً لها أول مرة، وتقول الان كما تريدين.

قال ساخراً:

ـ لقد تغير كل شيء الآن.

سألت مندهشة:

وماذا تغير، أنت أم نحن أم الثمن؟

قال ساخراً أيضاً: إنه أنا.

ـ لماذا؟

قال:

ـ كنت أحسب نفسي رساماً عندما أتيتما أول مرة، وكانت لوحاتي عزيزة علي، ثم جاء الصغير، وكنت على استعداد أن أبيعك اللوحة بشطيرة فلافل، أما الآن، فسوف تشترين لوحة رسمها عامل أو عتال... أرأيت الفرق! ليتك اشتريتها أول مرة وأنقذت رأيي وإحساسي.

قالت متأثرة:

ـ لكن اللوحة لم تتغير.

قال:

ـ هذه أشياء يراها الناس بعيون مختلفة وبأحاسيس غير مرسومة.

قالت:

ـ كنت أود أن أساومك، لكن سأشتريها الآن بالسعر الذي طلبت أول مرة، أود أن أحفظ لك رأيك وإحساسك، وأرجو ألا تبتئس.

قال:

ـ شكراً لك موقفك الطيب مني، لكنك لست ملزمة بدفع السعر الأول. ادفعي ما قدّرت أن تساومي.

قالت:

ـ أبداً، هذه الثلاثمائة ليرة، ولا تجعل أول صدمة تشرخ إحساسك، سترى كثيراً.

تناول، وتناولت اللوحة، ودعتا، وظل يتابعهما واللوحة ببصره الى مسافة بعيدة، كان حزيناً ومشوشاً، لكن كان ينمو في داخله إحساس رقيق من الأمل والرجاء.

قال له أحمد:

كنت أراقبك، لقد حرقت قلبي، ولا أغفر لنفسي أن أخذتك للعمل....

قال بشيء من الراحة: أبداً أبداً، لقد فتحت أمامي أبواباً كثيرة، وبالرغم من أني لن أتخلى عن طريقي الذي رسمت، لكن لن أسد الطرق الأخرى التي تفتح نفسها علي... سأظل معك أعمل، ولن أعود قبل أن أبيع كل لوحاتي وأطباقي واشتري لأمي هداياها...

قال أحمد ضاحكاً:

ـ قد تتأخر كثيراً..

قال:

ليكن، فلست على عجل.. وسوف أرسم لك لوحة للذكرى وعلى ظهرك كيس الرمل.

من يصنع العسل..؟

الكوبرا أم الحب والقيم؟

قراءة في رواية:

[الكوبرا تصنع العسل]

بقلم:

حورية حمو

يقدم الدكتور أحمد زياد محبك في روايته الكوبرا تصنع العسل رؤيا مستقبلية للمجتمع، عمادها الإيمان بالقيم. وبطل الرواية الموظف البسيط رياض، يشكّل ثنائية جميلة مع وداد، البطلة الثانية في الرواية. وهما يمثلان شريحة اجتماعية كاملة ترى من خلالها الموظفات والموظفين ومعاناتهم من مشاكل الحياة والمجتمع ولا سيما مشكلة المرأة الموظفة والطالبة الجامعية الزهرة المتفتّحة في غابة من الأشواك والجفاف، وداد زهرة تنشر الحيوية والحياة أينما ذهبت وخاصة في مكتب الآلة الكاتبة برئاسة الاستاذ رياض المحور الذي تدور حوله شخصيات الرواية وأحداثها.

وداد هي البطلة الثانية في الرواية ولعلها الأولى لأنها تصدرت الاحداث دائماً، فكانت حديث الأستاذ رياض الدائم سواء مع نفسه أو مع اسماعيل زميله وصديقه. فهي شابة جميلة تشعُّ نضارة وحياة انتقلت في بداية الرواية الى مكتب الالة الكاتبة عند الاستاذ رياض حيث مكانها الطبيعي، ولكنها لاقت صعوبة كبيرة حتى تم لها هذا الانتقال. ويصفها الكاتب على لسان الاستاذ رياض بعطرها الفاغم الذي يغمر المكان أينما ذهبت إنه عطر الكوبرا وهي تهتم بمظهرها كثيراً وتضع حول معصمها سواراً من جلد هو مجسّم صغير لأفعى الكوبرا التي تصدرت عنوان الرواية، صحيح أن وداد كانت تهتم بأناقتها لكنها لم تكن شريرة كأفعى الكوبرا بل كانت تصنع الحب والفرح لتنشره حولها مع عطرها فكانت كوبرا تصنع العسل، وداد تشرب الكثير من القهوة وتدخن كثيراً من سجائر

الكنت ربما كان ذلك بسبب الحياة التعيسة التي عاشتها والظروف المريرة التي مرّت بها.

والأستاذ رياض موظف عادي في الخمسين من عمره، شخصية متوازنة أتعبتها السنون وأثقلت كاهلها الهموم، ربُّ أسرة صغيرة مؤلفة من زوجته وابنته هدىء وابنه عماد المتخرج من كلية الهندسة منذ عامين ولا يجد الوظيفة ولا المال لفتح مكتب أما الاب رياض فقد عاش روتين الوظيفة الممل بكل أبعاده مع صديقه وزميله اسماعيل الموظف الوحيد الباقي من جيله.

رياض في أوصافه العامة والخارجية إنسان عادي جداً لكن إذا قرأنا الرواية جيداً نجد أنها مونولوج داخلي للاستاذ رياض نتعرف الى محيطه والى من حوله بمظهرهم الخارجي ونفسياتهم الداخلية فلا يمرّ بأي شخص أو شيء بشكل حيادي إنما يفكر كثيراً في أي شيء يصادفه فله مواقفه المناسبة في الأوقات المناسبة حتى مع وداد يفكّر طوال الوقت أن يعاملها برسمية وفي إطار العمل فقط، مع أنه قَبِلَ دعوتها الى المقصف وذهب الى بيت أختها، لكننا نجده يرفض تناول الفنجان الثاني في المقصف ويرفض تناول العشاء في بيت اختها ويكتفي بالملح وكأنما يريد أن يربطهما ملح هذه الأرض كما جمع بينهما الشقاء في هذه الأرض، إنه يحاول أن يتعامل معها بمنطقية وحكمة لان هذا في طبعه، على الرغم من أن وداد كما حدثنا عنها رياض لا يمكن لرجل أن يرفض دعوتها، لانها ليست دعوة شابة جميلة فقط بل تمثل دعوة الحياة الى الحياة، فحتى الاستاذ رياض يعترف انها جعلته يشعر بالنشاط والحيوية، وأن شعوراً ما في داخله يجعله يهتم بها وينتظر حضورها ويقلق لتأخرها ويختلس النظر اليها وهي تعمل على لآلة الكاتبة حتى أنه ليصفها بدقة حتى يصف اصابع يديها على الالة الكاتبة ويتابعها باهتمام وشغف، انه لا يتعامل معها كامرأة او زميلة عمل، بل يتعامل معها كما يتعامل مع معادلة للحياة، باعتدال، تفرض عليه كثيراً من التصرفات ويجد نفسه يتبعها بعد تردد بسيط فهي تدعوه الى بيت اختها وقبل ان يرد يجد نفسه مضطراً للصعود الى السيارة معها، وعندما تخبره ان اختها ليست موجودة وسيكونان في البيت وحدهما يتردد تسأله: هل أنت خائف؟ يقول: لا، لأن الشقاء هو الذي يجمعنا، ويتعامل معها داخل المنزل كما لو كانا في خارجه.

والرواية تجعلنا نستاء من العادات السيئة لبعض الشخصيات من خلال حديث الاستاذ رياض عنها، مثل تصرفات اسماعيل وتدخله فيما لا يعنيه وحديثه عن وداد بالسوء وكذلك معاملة المدير له، لكنّ هناك تحوّلاً في مواقف رياض من هذين الشخصين بالذات، كان يحب اسماعيل ويرى كل مافيه لائقاً به لكنه فيما بعد بدأ يشمئز منه واكتشف فجأة كل العيوب التي فيه، ترى ما سبب هذاالتحول عند رياض؟ هل هو من منطلق تعاطفه مع وداد ضد اسماعيل الذي يشوّه سمعتها؟ اذ وجد وداد بريئة من كل التُهم ولا تستحق أن يتحدث عنها اسماعيل بالسوء؟ الحقيقة كان رياض يرى اسماعيل يُجرّح في إنسانة لم تؤذه أبداً ولم تمسّه بالسوء فهي مهما كانت لا

تستحق ان يتحدث عنها بتلك الطريقة السيئة وأن يشوّه سمعتها في الدائرة إذن لماذا كان اسماعيل يتصرف بهذه الطريقة؟ لماذا أصبح سيئاً وقد كان طيب القلب؟

المدير في الواقع هو الذي طلب من اسماعيل التشهير بوداد، واذا لم ينفّذ فسيحلّ غضب المدير عليه واسماعيل الموظف البسيط أبو العيال لا يحتمل غضب المدير ولا طاقة له عليه. والمدير أيضاً مطلوب منه ذلك من مدير الدائرة السابقة التي كانت تعمل فيها وداد ، فالقضية قضية مصالح بين المديرين، وكل هذا للانتقام من الموظفة المسكينة لانها لم تستجب لاغراءات المدير السابق وتهديداته.

في الجزء الأخير من الرواية يدخل الاستاذ رياض الى مكتب اسماعيل ويتحدث الى قلب اسماعيل النقي والطيب الى الإنسان الاصيل في داخله، فيستجيب اسماعيل لنداء صديقه ويقرر ان يسترد روحه التي باعها للمدير ويعده ان يتوقف عن نشر الشائعات حول وداد.

ولقد كان المدير في بداية الرواية شخصاً سيئاً ومكروهاً من قبل الاستاذ رياض والموظفين، والرواية تجعلنا نشعر بذلك من خلال حديث رياض عنه، والصفات التي يطلقها عليه، يقول إن صوته أجش غليظ وأسلوبه تعسفي والدخول الى مكتبه يعني عقوبة او غضباً عارماً، فيسبب الخوف والرعب في قلوب الموظفين، وهذا ما ينتاب الاستاذ رياض عندما استدعاه المدير الى مكتبه في بداية الرواية لتبليغه بنقل وداد الى مكتبه، هكذا كان المدير في بداية الرواية من خلال حديث رياض عنه، أما في نهاية الرواية فيراه رياض بصورة مختلفة عما يراه عليها لأول مرّة، عندما وافق على انفكاكه من العمل للسفر وبداية عمل جديد في اليمن رأى في المدير الإنسان في ضعفه الإنساني الجميل كحمامة وادعة، يقول لوداد: «المدير نفسه أضعف مني ومنك هو الآخر مجرد موظف مثلنا ولكنه يحمل من الهموم والمشكلات أكثر مما نحمل هو أجدر منا بالعطف والشفقة، صدقيني يا وداد، اليوم فقط، وبعد هذا العمر عرفت ذلك».

والاستاذ رياض يتعامل مع الجميع بحب ومودة دون أية مصلحة مادية أو أنانية أو رغبة في الشكر والحمد، أي من منطلق إنساني بحت يشعر بمن حوله ويساعدهم ما دام ذلك باستطاعته، ربما يقول قائل إن هذه الشخصية نادرة بل ومستحيلة الوجود فهذه الصفات إنما صفات الأنبياء فقط ولا يمكن لبشر أن يحمل مثلها، لكن يمكن القول إن وجوده ممكن إذا غمر الحب والخير قلب الإنسان فكانا منطلقه وطريقه وغايته.

ويمكن القول أيضاً إن شخصية رياض في الرواية هي تعبير عن طموح وأمنية وحلم، فالرواية تصنع نموذجها، وهي تريد أن تزرع في داخل كلّ منا جوانب من شخصية رياض، بل هي توقظ في داخلنا تلك الشخصية، لانها موجودة في الاعماق، ولكنها نائمة.

وعند قراءتنا لهذه الرواية نشعر بقرب الاستاذ رياض من روحنا ونفسيتنا، كأننا نعرفه منذ زمن بعيد، بل كأنه يعيش في داخلنا.

والاستاذ رياض وفيّ لبيته واسرته وأولاده، فهو واقع تحت ضائقة مادية،

ولكنه يوفر كل شيء لأسرته، ولا يجعل أحداً من أفراد أسرته يشعر بحاجته المادية، على الرغم من تراكم الديون عليه. وهو يحاول دائماً إصلاح احواله الاجتماعية وتحسين حالة أسرته وإبعاد شبح الفقر والعوز عنها لذلك نراه يسعى للسفر والعمل الذي نجح في الحصول عليه في الجزء الأخير من الرواية، وهذا يعني نهاية الرواية نهاية سعيدة ومرضية لكل الاطراف، اسماعيل يستعيد روحه، وداد ستلقى الاحترام من الجميع، تغيير لطيف وجميل يطرأ على حياة الموظفات يجعل حياتهن أكثر نشاطاً ومرحاً، طموح رياض في السفر تحقق. ولكن أليس ثمة ثمن باهظ يدفع؟

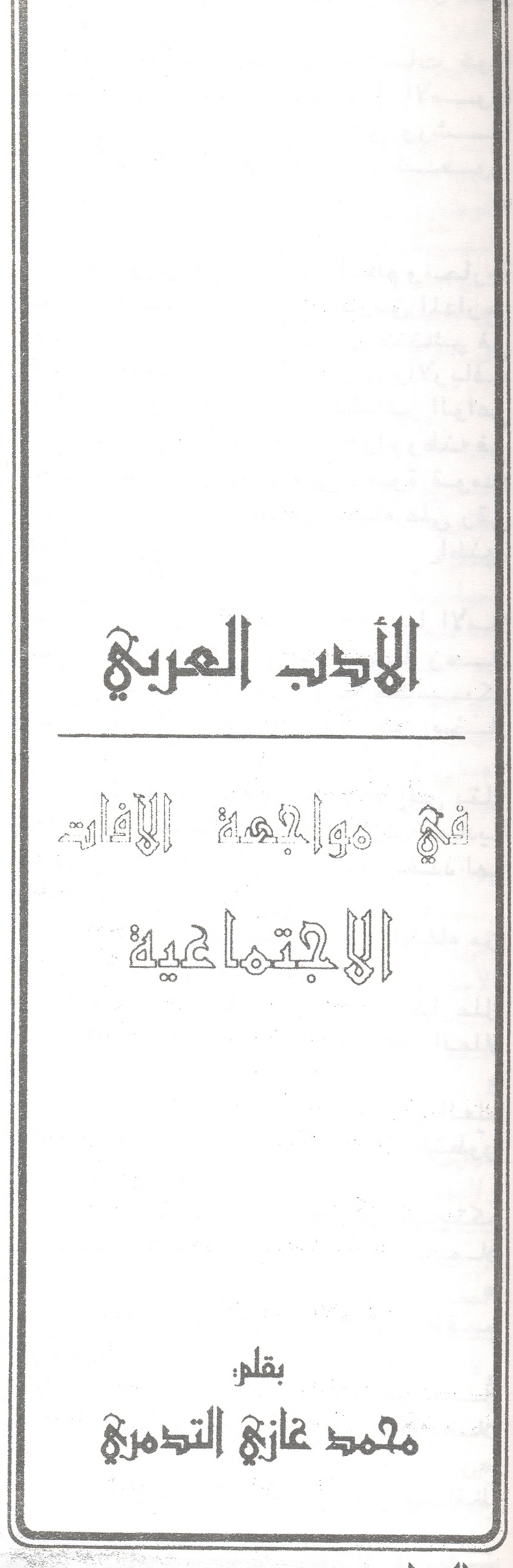
اذا كان ثمن تحسين الحالة المادية لعائلة رياض هو اغترابه وبُعده عن مدينته التي احبها وعن عائلته والاصدقاء، فما ثمن سعادة باقي الشخصيات، هل هو موت الموظف المسكين صالح؟

إن موت صالح لا يُشكّل موت فرد بحد ذاته، بل موت قسم كبير من ابناء جيله، إن لم يكن الموت الجسدي فهو الموت الروحي، وهذا ما أحسّت به وداد وهو ما يُسّر حزنها الكبير على صالح رغم أنها لم تره إلا مرّة واحدة، عندما زارته في المستشفى مع الأستاذ رياض، وشعرت انها تكرر قصة صالح وكأنها ستعيش مثل حياته، فها هي تبدأ العمل في الخامسة والعشيرن من عمرها، في المكتب نفسه الذي بدأ هو فيه العمل وعلى الطاولة ذاتها، بل وتشعر انها ستموت مثل صالح وحدها لا أحد حولها، تصارح رياض بكلّ ذلك في بيت اختها أثناء إعدادها القهوة، لكن الاستاذ رياض يقاطعها: «لا، يا وداد، الحياة لا تكرر نفسها، وأنت ستكون لك حايتك، كأنما في داخله خوف كبير على وداد، وكأنها تمثل له أملاً كبيراً وحلماً جميلاً أو شمعة مضيئة، نعم وداد شمعة الحياة التي لا يريد لها أن تطفأ او تضعف، نلاحظ من مقاطعته لها وعباراته القصيرة والتقريرية اصراره على استمرار تلك الشمعة، وكأن وداد في نظره خالدة الى الأبد، ولن يطالها شبح الموت أبداً، إنها استمرار الحياة كما ان وجود الاستاذ رياض هو استمرار لكل المعاني الجميلة والقيم الروحية.

إن رواية «الكوبرا تصنع العسل» هي نداء لإنسانية الإنسان، هي دعوة دافئة لطرد الخمول والكسل عن العقل، وإبعاد وحش الجشع والمادية عن الضمير والعواطف، وإزالة ما تراكم من غبار على القيم، لكي تنطلق الروح في عالم الحب والخير والبناء، لتحقيق إنسانية الإنسان.

إن رواية «الكوبرا تصنع العسل» هي الرواية الأولى لمؤلفها الدكتور أحمد زياد محبك، وقد صدرت حديثاً عن دار القلم العربي في حلب، وتقع في ١٤٣ صفحة، وتمتاز بالرشاقة والإمتاع، ولا يستطيع قارئها ان يتركها قبل ان يفرغ من قراءتها.

ومؤلفها الدكتور أحمد زياد محبك استاذ لمادة الادب العربي الحديث في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة حلب، وهو عضو اتحاد الكتاب العرب في سورية، وقد صدرت له ثلاث مجموعات قصصية، ضمت نحواً من خمسين قصة، ويجيء انتقاله الى كتابة الرواية بعد خبرة ونضج في فن القص، وهذا ما انعكس واضحاً في إيجاز الرواية وتكثيفها وقدرتها على تقديم الشخصيات تنبض فيها الحياة.



* مدخل:

مَنْ يفتح تاريخ يوميات الوطن العربي، في القرن التاسع عشر وحتى قبيل بزوغ ذكاء النهضة الحديثة، ويتجوّل في قاع المدن والأرياف، يلمس كيف كان الإنسان العربي يعيش واقعاً اجتماعياً أسود المظاهر فاحم المضمون، فمظاهر الجهل والفقر والمرض والتشرد، غطت مساحات المدن والأرياف، مما دفع الأدباء والمفكرين العرب، الذين حملوا في عقولهم وقلوبهم معاني معطيات الثقافة الجديدة، من خلال الاحتكاك المباشر بالعالم الغربي، وما حملته ثورته الصناعية والاجتماعية والثقافية الجديدة، لأن يعملوا على كشف المظاهر والأشكال السلبية، التي دفعت المجتمع العربي إلى التردي والسقوط في مهاوي الجهل والفقر وغيرهما من الافات الاجتماعية التي تقف بوجه نهوض الأمة وتقدّمها، مماساهم في تكريس دور الأدب الجاد في عملية النهوض بالأمة ودفعها إلى سبل التقدّم والرقّي، وإنقاذها مما وصلت إليه من حالة متدنية من السوء والانهيار الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، ولذلك لم يكن اهتمام الأدباء في بداية عصر النهضة منصرفاً إلى الشؤون السياسية من ظلم واستعمار واستعباد واستبداد فحسب، إنما نزلوا إلى قاع المجتمع العربي.. ولمسوا خطر الأوضاع المزرية السائدة فيه، فانصب اهتمامهم على القضايا الاجتماعية، والبحث في مشاكل وهموم الإنسان العربي، وقد تجسّد معظمها في الجهل والمرض والتخلّف والفقر وما يمكن أن يودي إليه من تشرد وضياع لأجيال الأمة وأطفالها الذين يشكلون عماد الوطن وأمله، ولذا كان من أهم اتجاهات أدبنا الاجتماعي منصباً على كلّ ما كان «يتعلّق بالطبقات البائسة، وللبؤس أشكال شتى يجمعها إثنان أساسيان هما: البؤس الاقتصادي، والبؤس الاجتماعي، ولعلّ الأول أصلها جميعاً، فإنّ مسألة الغنى والفقر مسألة قديمة العهود، وقلّما نجد أمة خلت آدابها الاجتماعية من ذكرها والاهتمام بها، أو عصراً لم يقم فيه من يجاهد بلسانه أو قلمه، فيحمل على جور السادة، وجشع

الأغنياء، ويدعو إلى إغاثة المحتاج وإنصاف المظلوم.

كان همّ العبد والفلاح والعامل أن يعيشوا آمنين في ظلّ سادتهم، ومالكي أمرهم، ولم يكن يُطلب من السيد أو الغني إلاّ أن يكون عطوفاً عليهم، راثياً لبلواهم، محسناً إليهم»[1] فشن الأدباء في عصر النهضة حرباً شعواء على الجهل والتخلف، ودعوا إلى العلم، وحضّوا على ربطه بالعمل والأخلاق، كما ناقشوا مشكلة تشرد الأطفال وخطره على الأمة والمجتمع فصوّروا وضعهم بشيء من الأسى والمرارة حاضين الأثرياء على أن يأخذوا دورهم في إنقاذ أطفال الأمة، فلاموا تقصيرهم، ودعوهم إلى مساعدتهم من أجل إقامة مجتمعٍ قوي متماسك من الداخل والخارج على حد سواء.

* الدعوة إلى العلم

أدرك الأدباء والمفكرون، أنّ مشروع أيّة نهضة لا يمكن أن تقوم دعائمه إلاّ على العلم والمتعلمين، وأنّ سر تقدّم الأمم قائم على العلم ونشر المدارس، لذلك ظلّت الدعوة إلى أهمية العلم ونشر المدارس وربطها بالقيم التربوية والأخلاقية، من أبرز القيم التي استأثرت باهتمام الشاعر العراقي (معروف الرصافي)[2] الذي دعا إلى بناء المدارس ونشر العلم لأنّ «العلم هو كل شيء في حياة الشعوب، وعلى قدر نصيبها منه تعلو مكانتها أو تنخفض بين الأمم، وقد دأب (الرصافي) على تنبيه بني قومه إلى هذه الحقيقة في زمن برزت فيه طلائع المخترعات التي تؤمن سيادة الإنسان على الطبيعة وتفوق الغرب على الشرق فقال[3]:

«أيّها الناس إنّ ذا العصر عصر الـ ... ـعلم والجد في العلى والجهاد

بُنيت فيه للعلوم المباني ... مثل سير الضياء في الأبعاد

ما استفاد الفتى وإن ملك الأر ... ض بأعلى من علمه المستفاد

* * *

فالعلم وسيلة الرفعة والارتقاء، والجسر الذي تعبر عليه أجيال الأمة، من ظلمات الجهل والتخلف، إلى نور العلم الذي يفتح أبواب المستقبل لمطلّ على الحياة المتقدّمة الخالية من عناصر الجهل، وما يمكن أن يفرزه من تخلف وفقر ومرض:

كفى بالعلم في الظلمات نورا ... يُبيّن في الحياة لنا الأمورا

تزيد به العقول هدىً ورشدا ... وتستعلي النفوس به شعورا

* * *

ولا ريب في أن نشر العلم ومحاربة الجهل لا يتمّان إلاّ عن طريق المدارس ومعاهد العلم «التي يجب أن تنتشر في كل مكان، في المدن والقرى والأرياف» ولذا انصرف (الرصافي) الشاعر الواعي لرسالته القومية، والعليم بأدواء وطنه في العديد من قصائده إلى دعوة قومه لتشييد دور العلم وتبيان عقباه على رقي الأمة، فالمدارس مصانع الرجال والمواطنين الصالحين»[4]:

ابنوا المدارس واستقصوا بها الأملا ... حتى نطاول في بنيانها زحلا

جودوا عليها بما درّت مكاسبكم ... وقابلوا باحتقار كلّ من بخلا

* * *

والرّصافي في دعوته إلى بناء المدارس، لا يفعل ذلك من زاوية أحادية النظرة والاتجاه والهدف، إنما يحدّد لها أبعاداً قومية وإنسانية وتربوية.

فالعلم كالطب القادر على الشفاء من العلل والأمراض المستعصية:

إن كان للجهل في أحوالنا عللٌ ... فالعلم كالطبّ يشفي تلكم العللا

* * *

ثم يربط العلم بالعمل، لأن العلم المقترن بالعمل الجاد المتقن دليل التطوّر والنجاح في الحياة:

لا تجعلوا العلم فيها كلّ غايتكم ... بل علّموا النشء علماً يُنتج العملا

* * *

كما يربط العلم بالأخلاق والقيم الإنسانية:

ربّوا البنين مع التعليم تربيةً ... يمسي بها ناقص الأخلاق مكتملا

* * *

ويشارك الشاعر المعري (حافظ

ابراهيم) صديقه (الرصافي) في أهمية ربط العلم بالأخلاق فيقول:

والعلم إن لم تكتنفه شمائل
تعليه كان مطيّة الإخفاق

* * *

ويرى «الرصافي» أن للمدارس دوراً هاماً في إعداد الجيل للاسهام في نهضة الوطن والذود عنه فقال:

فجيّشوا جيش علم من شبيبتنا
عرمرماً تضرب الدنيا به المثلا
إن قام للحرث ردّ الأرض ممرعة
أو قام للحرب دكّ السّهل والجبلا

* * *

ولعلّ أهم دعوة وجهها الرصافي في هذا الموضوع بالذات لفت انتباه التربويين إلى أهمية توحيد المناهج التربوية في البلاد العربية، لأنّ في ذلك خطوة إيجابية على طريق توحيدها سياسياً واقتصادياً

فاجمعوا الرأي فيما تعملون به
ثم اعملوا بنشاط يُنكر المللا
ثم انهجوا في بلاد العرب أجمعها
نهجاً على وحدة التعليم مشتملا
حتى إذا ما انتدبنا العرب قاطبة
كنّا كأنّا انتدبنا واحداً رجلا

* * *

فوحدة العلم والثقافة بداية الطريق إلى الوحدة القومية، التي تنشدها أجيال الأمة العربية من مشرقها إلى مغربها:

ماضر لو نحن وحدنا ثقافتنا
قبل السياسة بالتعليم والكتب

* * *

لقد شغلت قضية العلم مساحة كبيرة من مشاركات الشعراء الوجدانية والفنية، فالشاعر «أحمد شوقي» يرى أن بالعلم تمتلك الدنيا نضارتها وقوتها في أن تتبوأ المكانة المرموقة في المجتمع الحضاري الجديد:

بالعلم تمتلك الدنيا ونضرتها
ولا نصيب من الدنيا لجهال

* * *

وترك الأجيال مشردة في الشوارع وعلى أرصفة الحدائق والمقاهي دون علم وتربية ومدارس كترك المريض دون طب أو دواء:

ترك النفوس بلا علم ولا أدب
ترك المريض بلا طب ولا أسى

* * *

*الطفولة المشرّدة:

الجدير بالذكر إنّ الشعراء لم يكتفوا بالثورة على الجهل والتخلّف، والدعوة إلى العلم، وضرورة بناء المدارس على اختلاف مستوياتها وإنما تحدثوا أيضاً عن شقاء الأطفال البائسين المشردين دون أية رعاية أو عناية فقال «أحمد حسن الزيات»[5] «إن هؤلاء الأطفال الذين تراهم يطوفون طوال النهار، وثلثي الليل، على القهوات، والحانات، كما تطوف الكلاب والهررة على دكاكين الجزارة، ومطاعم العامة، وهمهم أن يصيبوا ما يسدّ الرمق ويمسك الحياة».

ويربط الكاتب قضية هؤلاء الأطفال المشردين بالقدر الذي اختار لهم هذه الحياة الضائعة فقال: «ياالله ماذنب هذا الطفل الشريد الذي تتحامون مسّه، وتتفادون مرآه، إذا كان القدر قد اختار له ذلك الأب البائس».

وعلى الرّغم من أنّ ربط البؤس والشقاء بالقدر وحده غير كاف لتبرير تشرد الأطفال الأبرياء في قاع المدن، فإن الكاتب يضع يده على السبب الأهم الذي يدفع أب بائس إلى رمي فلذات أكباده في زوايا الطرق تطؤها الأقدام وتتحيّفها المارة، وهذا السبب لم يكن غير الفقر الذي يشكل أساس كلّ بلاء اجتماعي واقتصادي «هل من طبيعة الحي أن يلقي أفلاذ كبده مختاراً في مدارج الطرق، تطؤها الأقدام وتتحيّفها المارة؟ هل تستطيعون أن تجدوا لذلك -إن وقع- علّة غير الفقر» لذلك لا بدّ من علاج ناجع ومفيد ينقذ أطفالنا من هوّة التشرد والضياع في زوايا الشوارع المنسيّة، فيدعو الكاتب إلى اقتحام خدر الفقر وتقييده بالإحسان المنظّم في المدارس، والصدقة الجارية في الملاجىء، عند ذلك تمتد الحياة بحراً من الضياء يغمر كل عين وقلب.

ويشعر الجميع أن روحاً إنسانية قد اندغمت في الأرواح جميعها حولت الشعب إلى جسد واحد تتغذى شرايينه بدم واحد:

«فإذا كنتم تشفقون على نعيم عيشكم من رؤية البؤس، وتخشون على جمال حياتكم دمامة الفقر، وتغفون بسلام وطنكم على أدواء التشرد، فاقتحموا على الفقر مكامنه في أكواخ الأيامى، وأعشاش العجزة، ثم قيدوه بالإحسان المنظم في المدارس، والصدقة الجارية في الملاجيء، تجدوا بعدئذ أنّ الدنيا جميلة في كل عين، والحياة بهيجة في كل قلب، وتشعروا أنّ روحاً عامة قد وصلت بين الأرواح فأصبح الشعب كلّه جسماً حياً متالقاً متكاتفاً تتغذى خليّاته بدم واحد، وتتساير نيّاته إلى غاية واحدة».

لقد رسم «الزيات» معالم الطريق الواضحة لإنقاذ الأطفال المشردين، فحث الأغنياء على مساعدة الأطفال، ولامهم في تقصيرهم في أداء واجبهم الإنساني والقومي، كما أوضح السبل الكفيلة بإنقاذهم من مهاوي الذل والتشرد من أجل إقامة مجتمع عربي متماسك.

كما صوّر الشاعر «علي الجارم» آلام الطفل المشرد ومعاناته في الحياة فقال:

أطّلت الآلام من حجره
ولفّت الأسقام في طمره
مشرّد يأوي إلى همّه
إذ أوى الطير إلى وكره
ماذاق حلو اللّثم في خدّه
ولا حنان المس في شعره
ولا حوته الأم في صدرها
ولا أبٌ ناغاه في حجره
واهاً لكفّ لصقت بالثرى
وائتدمت بالبؤس من عفره
ماذا على الإحسان لوردّها
نديّة الأطراف من برّه

* * *

لقد كانت قضية تشرد الأطفال هماً عاماً عند معظم شعراء ومفكري عصر النهضة. لأنهم وجدوا في شقاء الطفل شقاء للأمة والإنسانية كما يقول شاعر الشعب «حافظ ابراهيم»:

أنقذوا الطفل إنّ في شقوة الطفـ
ـل شقاء لنا على كلّ حال
أيدوا كلّ مجمع قام للبشر
بجاه يظلّله أو بمال

* * *

* واقع الريف

غدا الفقر دليل تخلّف المجتمعات العربية مما ساهم في إبراز التفاوت الطبقي كمضهر من مظاهر القسوة والنقص والوعي الاجتماعي.

وكان للأدب -في شعره ونثره- الدور الأول في الكشف عن العيوب الاجتماعية التي تقف سداً منيعاً في وجه تطوّره وتقدّمه.

فعالجوا قضيةالفقر في المدن عامة، وفي الريف خاصة، حيث كان قابعاً تحت ذل الفقر، وسوط التخلّف، وعبودية الاقطاعي الذي كان يملك الأرض ومن عليها من إنسان وحيوان.

لقد شغلت مأساة الفلاح المصري المستغَل أبشع استغلال أعماق الشاعر المعري «أحمد عبد المعطي حجازي [٦]» الذي ترك القرية الى المدينة الكبيرة، التي لم تمح من ذاكرته صور الطفولة المزروعة في حقول وبساتين القرية:

«ولدت هنا كلماتنا
ولدت هنا في الليل يا عود الذرة
يا نجمة مسجونة في خيط ماء
يا ثديَ أمّ لم يعدْ فيه لبن
يا أيها الطفل الذي مازال عند العاشرة
لكنّ عينيه تجوّلتا كثيراً في الزّمن»

هذه الذكريات، وتلك الملامح المرتسمة في ذاكرته ووجدانه عن حال أهله في الريف، تدفعه الى أن يُطلق صرخة ألم قاسية يوجهها ابن الريف إلى أهله وذويه الفلاحين البسطاء، كي يثوروا على المستغلين الذي يقاسمونهم الأرض والقوت:

«يا أيها الانسان في الريف البعيد
يا من يُصمّ اسمع عن كلماتنا..
بالعين لو صادفتها
كيلا تموت على الورق
أسقط عليها قطرتين من العرق
كيلا تموت
فالصوت إن لم يلق أذناً ضاع في صمت الأفق»

وإن كان بعض الأدباء قد وضعوا حلولاً إصلاحية لحل مشكلات الفقر والبؤس

الاجتماعي سواء في المدينة أو في الريف عن طريق الإحسان والصدقات الجارية. فإنَّ الشاعر «عبد المعطي حجازي» دعا الى الثورة والنضال ورفض الخنوع، فيحاول أن يثير وعي الفلاح ليثور على واقعه الأليم، لعلَّ الثورة تتأجج في نفسه، فينتفض على مستغليه، ويتحرر من ظلمهم واستبدادهم وسرقة جهده وعرقه الى جيوبهم فيُقيم آنذاك أعراس الفرح، بعد أن يكون قد استردَّ حريّته كاملة في أرضه وحقّه المشروع:

«أين الطريق إلى فؤادك أيّها المنفي في صمت الحقول

لو أنني نايٌ بكفّك تحت صفصافة

أوراقها في الأفق مروحة

خضراء هفهافة

لأخذتِ سمعك لحظة في هذه الخلوة

وتلوتُ في هذا السكون الشاعري حكاية الدنيا

ومعارك الإنسان والاحزانِ فيّ

ونفضت كلّ النار.. كلّ النار في نفسك

وصنعتُ من نغمي كلاماً واضحاً كالشمس

عن حقلنا المفروش للأقدام

ومتى نقيم العرس.. ونودع الآلام؟!»

«لقد حرص الشاعر على الارتقاء بنعه الى مستوى جمالي، بنى فيه صورة الريف على إحساسين متداخلين، هما الفرح الذي يبعثه جمال الطبيعة ممتزجاً بالأسى، وهو لا يعرض مضامين النص مباشرة، بل ينقلها من خلال الصور التي تُشكّل فضاء خارجياً للنص يخفي وراءه أفكار الشاعر ومشاعره، ويتيح للقارىء فرصة المشاركة في التفسير والتحليل.

ومع أنّ الأبيات موجهة الى الفلاح، فإنها رسالة فنية مرسلة بصورة غير مباشرة الى المثقفين وأبناء الأمة بهدف تحريضهم على تأييد مطالب الفلاح العادلة»(٧).

هكذا نجد كيف اهتم الادباء والشعراء اهتماماً مباشراً بالهموم الاجتماعية من فقر وتشرد وهضم لحقوق الفلاحين، فعالجوا هذه القضايا معالجة ناجحة واضعين الحلول الناجعة للخلاص منها، وذلك إما بالعلم والمعرفة ونشر المدارس في المدن والأرياف على حد سواء، أو عن طريق الاحسان والصدقة والتبرعات أو عن طريق الرفض والثورة من أجل الخلاص والتغيير.

وقد ساهمت الاساليب جميعها، في وضع الانسان العربي على بداية طريق الوعي الحضاري الجديد ، الذي دفعه للنهوض من واقعه المتردي الذي دفعته اليه الآفات الاجتماعية، لبناء المجتمع النهضوي القائم على حق الإنسان في العلم والتعليم والمعرفة وبحياة هانئة يعمرها الرفاه والعدل والسلام.

* * *

هوامش:

١- أنيس المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي.

٢- ولد «معروف الرصافي» في بغداد عام (١٨٧٥م) ودرس علوم اللغة العربية على يد العلاّمة العراقي (محمود شكري الألوسي) عمل في التدريس، ثم سافر إلى (أستانبول) فعمل في الصحافة، كما انتخب في مجلس المبعوثان الثاني.

عاد الى بغداد بعد الحرب العالمية الاولى، وشغل عدة مناصب في حقل التربية والصحافة والسياسية، كما أشترك في الحركة الثورية التي قام بها (رشيد عالي الكيلاني) وبعد إخفاق الثورة عاش في عزلة الى أن وافته المنية عام (١٩٤٥) شارك الرصافي في قضايا أمته السياسية والاجتماعية والقومية، فقاوم الاستبداد، ودعا الى العدالة وبناء المدارس ونشر العلم.

٣- د: ابراهيم الكيلاني - معروف الرصافي - اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٧٨ ص:١٠٨.

٤- المصدر السابق ص: ١١٢

٥- أحمد حسن الزيات: أديب مصري، ولد عام (١٨٨٩) امتاز برصانة العبارة، وإشراقة الاسلوب، ترجم كثيراًمن روائع الأدب العالمي الى اللغة العربية، توفي عام (١٩٦٨) تاركاً مجموعة كبيرة من المولفات من : كتاب الرسالة: وهو مجموعة مقالات نشرها في مجلة الرسالة التي أسسها، عالج فيها موضوعات قومية واجتماعية وذاتية بالإضافة الى (دفاع عن البلاغة) (في أصول لأدب) (تاريخ الأدب العربي).

٦- ولد الشاعر (أحمد عبد المعطي حجازي) في مصر عام (١٩٣٥) وتابع دراسته في القاهرة، عبر في قصائده عن شعوره بالضياع والغربة، من آثارة (مدينة بلا قلب) و(لم يبق إلاّ الاعتراف) (كائنات مملكة الليل).

٧- الأدب العربي الحديث، مجموعة في المولفين، وزارة التربية بدمشق ١٩٩٥ ص :٨١

رمضان بين الظرفاء والشعراء

بقلم:
محمد منذر لطفي

* مدخل الى البحث:

يُطلقُ اسم «رمضان» على الشهر التاسع من اشهر السنة الهجرية، وهو - كما جاء في دائرة المعارف الاسلامية - مشتقٌ من الفعل «رمض» لأنه يرمض الذنوب ويحرقها بالأعمال الصالحة.. وقيل ايضاً: لأن القلوب تأخذ فيه الموعظة والتفكير في امر الحياة الآخرة.. كما تأخذ رمال الصحارى الأشعة والحرارة من الشمس، كما قيل ايضاً: ان العرب كانوا يرمضون اسلحتهم في «رمضان»... اي يدقونها ويشحذونها بين الحجارة استعداداً للحرب في «شوال» قبل ان تهل عليهم الاشهر الحرم حيث يتوقف القتال فيها.

و«رمضان» هو الشهر الوحيد الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من بين شهور السنة الاثني عشر، وفي اكثر من اية كريمة، وفيه حدث العديد من الاحداث العظيمة في التاريخ.. «كغزوة بدر الكبرى» التي وقعت في السنة الثانية للهجرة وحققَ فيها المسلمون انتصاراً باهراً، و«فتح مكة» الذي حدث في السنة الثامنة للهجرة.. والذي كان له كبير الاثر في توحيد كلمة العرب وصفوفهم، وغزو «موسى بن نصير» الثغور الجنوبية للأندلس في رمضان عام ٩١هجرية.. والذي كان مقدمة لفتح الأندلس بكاملها في العام التالي من قبل «طارق بن زياد»، واستيلاء الخليفة العباسي الاول« ابي العباس عبد الله الملقب السفاح»

على دمشق في رمضان سنة (١٣٤)هجرية، وقتال السلطان «صلاح الدين الايوبي» الافرنج في سورية وبلاد الشام وانتصاره الشهير عليهم في معركة حطين.. وتحريرها منهم في رمضان سنة (٥٨٤) هجرية، واخيراً حرب تشرين عام ١٩٧٣ بين سورية ومصر من جهة.. واسرائيل من جهة ثانية.. والتي حدثت في رمضان ايضاً.

وقد امتاز هذا الشهر عن بقية شهور العام قبل الاسلام وبعده، ففيه نزلت «صحف ابراهيم الخليل» عليه السلام، كما نزلت «التوراة» على

«موسى».. و«الانجيل» على «عيسى» عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، وهو.. اي رمضان.. من احب الشهور الى الله سبحانه وتعالى، قال ابن الجوزي في كتابه بستان الواعظين: «مثل الشهور الاثني عشر كمثل يعقوب وأولاده، فكما ان يوسف احب أولاده اليه.. كذلك فان رمضان احب الشهور الى الله تعالى»، وقد خصه بهذه المنزلة لأسباب كثيرة.. لعل اهمها الاتي:

نزول القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك.

- وقوع ليلة القدر فيه.

- كثرة العبادة فيه والإقبال على طاعة الله.

- كثرة التعاطف والتآلف والتحابب فيه بين الناس.

- صيام المسلمين شهراً بكامله.. هو شهر رمضان.

والصوم عبادة قديمة لعلها بدأت منذ عهد «آدم.. أو نوح.. أو ابراهيم» عليهم السلام بدلالة الآية الكريمة: (يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون».

وقد ذكر «الانجيل» الصوم وامتدحه واعتبره واحدةً من العبادات الكبرى، كما عرف الوثنيون الصوم، وكان قدماء المصريين ايام «الفراعنة» يصومون.. وعنهم انتقل الى اليونان والرومان، ومازال الوثنيون في الهند يصومون حتى يومنا هذا، كما عرفته بعض العقائد الاخرى «كالبراهمة والمجوس والصابئة والبوذيين وأصحاب الديانات الذين يعبدون الحيوان أو النبات.

وفي «التوراة» نرى ان الصوم قد فُرض بعض الايام في بعض المناسبات، حيث كان من مظاهر تقشف القوم لباسهم المسوح على اجسادهم.. ونثرهم الرماد على رؤوسهم.. وتركهم ايديهم غير مغسولة.

اما الاسلام فقد اعتبر الصوم واحداً من اركانه الخمسة الذي لا يتم دين المسلم الا به، ولا يكمل الا بأدائه، فهو.. اي الاسلام - وكما يعلم الجميع - قد بني على خمس فرائض او قواعد هي (شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله - اقام الصلاة - ايتاء الزكاة - صوم رمضان - حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا) وهكذا نزلت الآية الكريمة واضحة بشأن الصوم.. قال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. اياماً معدودات.. فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً او على سفر فعدةٌ من ايام اخر. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم.. ولعلكم تشكرون) صدق الله العظيم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الصيام جُنّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب.. الخ الحديث الشريف»، وهكذا نرى ان لهذا الصوم شروطاً وآداباً، وهو ليس الكف عن الطعام والشراب ونحوهما من الامور التي تتعلق بالجسد ومتطلباته، ولا بالتقشف الظاهري.. وانما هو حياة روحانية يزينها الذكر والبر والاحسان والفكر والتخلق بمكارم الاخلاق وصيام اعضاء الجسد جميعاً عما حرم الله بدءاً بالعين واللسان.. مروراً بالاذن والبطن عن تناول الحرام او المشكوك فيه.. وانتهاء باليد والرجل، وقد شُرع في السنة الثانية للهجرة.

تلك هي فكرةٌ موجزة عن شهر الصيام.. وتعريفٌ مبسطٌ به.

* * *

ومن المسلّم به أنّ رمضان المبارك يزورنا مرة كل عام كما هو معروف فيوشح العالمين العربي والاسلامي بردائه السماوي العطر، ويصوم فيه من يصوم تقرّباً واحتساباً.. ويفطر فيه من يفطر ممن كان مريضاً او على سفر، ولكنّ ثمة أناس يفطرون فيه لأسباب هي في حد ذاتها بهجة للسامعين، ولا تخلو من عنصري الامتاع والفكاهة، ولعل أهم تلك الاسباب ما يلي:

أ - قد يكون سبب الافطار عن جهل بالدين والعقيدة نتيجة الاغراق في البداوة، وكثير من الاعراب كان يجهل احكام الشريعة لبعده عنها، وقد انتقيت للقارىء الكريم الطرفة التالية نموذجاً لهذا السبب:

وفد اعرابي على ابن عم له بالحضر، فادركه رمضان.. فقيل له:

لقد أتاك شهر رمضان.

قال: وما شهر رمضان هذا...؟

قالوا: الإمساك عن الطعام والشراب.

قال: أبالليل.. أم بالنهار..؟

قالوا: لا .. بل بالنهار.

قال : أفيرضون بدلاً من الشهر..؟

قالوا: لا .. أيها الاعرابي.

قال: فإن لم أصم.. فماذا يفعلون..؟

قالوا: تضرب .. وتحبس.

فصام أياماً.. فلم يصبر.. فأسرع بالرحيل وأخذ يقول:

يقول بنو عمي، وقد زرتُ مصرهم:
تهيأ «أبا عمرو» لشهر صيام
فقلتُ لهم: هاتوا جرابي ومزودي
سلامٌ عليكم.. فاذهبوا بسلام
ويممتُ أرضاً.. ليس فيها مسيطر
عليّ .. ولا منّاعُ أكل طعام

* * *

٢ً ـ وقد يكون سبب الافطار عن طيش وحمق... وقد وقع اختياري على الطرفة التالية مثالاً لذلك:

دخل «عيينةُ بن حصن القراري» ـ وكان معروفاً بالحمق ـ على الخليفة الراشدي الثالث «عثمان بن عفان» رضي الله عنه ليلاً، فقال له الخليفة:

هل لكَ في العشاء..؟

فقال عيينة: إني صائم.

فقال الخليفة: أمواصلٌ أنتَ يا عيينة..؟

قال: وما الوصال يا أمير المؤمنين..؟

قال الخليفة: أن تصوم يومك.. وليلتك.. ويومك الثاني حتى المساء.

قال عيينة: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكني وجدتُ صيام الليل أيسر عليّ من صيام النهار.

٣ً ـ وقد يكون سبب الافطار عدم اعتياد الصوم من سابق عليه، وهو ما حصل مع شاعر مجوسي كان حديث العهد بالاسلام فادركه اول رمضان بعد اسلامه.. فصامه، ولكنّ الجوع والعطش ألحّا عليه فقال:

وجدنا دينكم سهلاً علينا
شرائعه.. سوى شهر الصيام

* * *

٤ً ـ وقد يكون سبب الافطار الشعور بوطأة الحرمان من مُتع الطعام والشراب والنساء بعد ان حرمه شهر رمضان المبارك اياها، من ذلك قول احد الشعراء المغرمين بتلك المتع بعدما وافاه شهر رمضان فقال:

الغوث من شهر الصيام
إذ صار لي مثل اللجام
حتى أمتّع بالنّساء
وبالشراب .. وبالطعام

* * *

حتى انّ بعض الشعراء الفنانين الذين غلبتهم طبيعة الفن ونزعة التمتع بالحياة كانوا ما ان يروا شهر رمضان مقبلاً حتى يتقنّنوا في التماس الحيل للتخلص منه.. والهروب من لوم اللائمين، ويحضرني في هذا المقام الشاعر «أبو عمروالهندي»، وهو عربي أصيل من أشراف بني تميم، الا انّ ولعه بالخمر وتعلقه بها قعدا به عن منزلته، وكان استاذ الشاعرين «والبة بن الحباب» و«الحسن بن هانيء الملقب بأبي نواس»، وعليه تتلمذا.. ومن مدرسته تخرجا في معاني الخمريات التي ابتكراها وعرفت عنهما، وكان «ابو عمرو» هذا يسكن بغداد، فاذا اقبل رمضان فارقها الى فارس حيث يعكف على الشراب في بيوت المجوس.. او الى اديرة النصارى في الشام حيث يجد فيها بغيته من الشراب واللهو، ويظل كذلك.. حتى اذا انقضى شهر الصيام عاد ادراجه الى بغداد، ومما قاله في ذلك الابيات التالية التي كان «ابو نواس» يتمثل بها في مجالسه الخاصة.. ويستجيدها ويرددها:

شهر الصيام دنتْ منا طلائعه
فارحل لفارس.. او فارحل الى الشام
وكيف يعرفني من لست اعرفه
لا الدار داري.. ولا الاقوام اقوامي
حيّوا بأزهارهم.. حتى اذا قربت
منها الاباريق.. حيّا جامهم جامي

* * *

أما تلميذه «أبو نواس» فقد كانت

له صولاتٌ وجولاتٌ في هذا المجال بعد استاذه «ابي عمرو»، وها هو يقول بعد ان منعه الصوم العقار:

منع الصوم العقارا
وذوى اللهو .. فغارا
وبقينا في سجون الصوم
للهم أسارى
غير أنا سنداري
فيه من ليس يُدارى
نتغنى ما اشتهيناه
من الشعر.. جهارا
فاسقني حتى تراني
أحسب الديكَ حماراً

* * *

وبالرغم من فسقه وفجوره في رمضانٍ متخفياً.. الا انه يطلب ان يعوض في شوال اضعاف اضعاف مافاته من متع في رمضان فيقول:

استعذ من رمضان
بسلافات الدنانِ
واطو شوالاً على القصفَ
وتغريد القيان
وليكن في كل يوم
لكَ فيه سكرتان
أوفق الاشهر.. ما أبعدها
عن رمضان

* * *

ومع ذلك .. ومع أن هذا الشاعر ملأ الدنيا فسقاً وفجوراً، إلا أننا نراه في اخريات أيامه يتجه الى الله العلي الجليل وصاحب الملك والسلطان بهذا الدعاء الحار.. ليُكفّر به عما ارتكب في شبابه من سيئات ومعاصي فيقول:

إلهنا.. ما أعدلك
مليك كل من ملكْ
لبيك .. قد لبيّتُ لك
لبيّك انّ الحمد لك
والملك .. لا شريك لك
والليل لمّا ان حلك
والسابحات في الفلك
ما خاب عبدٌ سألك
أنت له حيث سلك
لولاك يا ربُّ هلك
يا غافلاً .. ما أغفلك
عجّل .. وبادر أجلك
واختم بخيرٍ عملك

* * *

ولا يكتفي بذلك.. بل يُتبعه بدعاء حار جديد آخر ايضاً يتوسل به الى الله تعالى ان يعفو عنه وان يشمله برحمته التي وسِعت كل شيء فيقول:

يا رب .. ان عظِمت ذنوبي كثيرةً
فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك الا محسن
فبمن يلوذ ويستجير المجرم..؟
ادعوك رب .. كما امرت تضرعاً
فاذا رددت يدي .. فمن ذا يرحم؟
مالي اليك وسيلةٌ الا الرجا
وجميل عفوكَ .. ثم انّي مسلم

* * *

٥ ـ وقد يكون سبب الافطار الضيق بطول ايام رمضان، وبخاصة اذا اتى في فصل الصيف، من ذلك قول الشاعر العباسي المشهور «ابن الرومي» الذي أدركه الصيام في شهر «آب» .. فصام رمضان الا انه قال:

شهر الصيام مباركٌ
مالم يكنْ في شهر آب
الليلُ فيه ساعة
ونهاره .. يوم الحساب
خفتُ العذاب فصمته
فوقعتُ في نفس العذاب

* * *

ـ هاذ وقد قيل مرةً «لمزيد المدني» وهو واحد من ظرفاء العرب: صوم يوم «عرفه» يعدل صوم سنة بكاملها.

فصام الى الظهر في ذلك اليوم، ثم افطر، ولما سئل عن ذلك اجاب:

يكفيني ستة اشهر .. اي نصف سنة.. يدخل فيها شهر رمضان..!

ـ وجاء رجل الى «ابي هريرة» رضي الله عنه في رمضان فقال له:

يا أبا هريرة.. دخلتُ داراً فأطعموني.. ولم أدر..!

فقال ابو هريرة: رزقٌ ساقه الله اليك، حيث اطعمك وسقاك، يقصد انه ليس عليه اثم.

قال الرجل: ثم دخلتُ داري.. واتصلتُ بزوجتي..!

فقال ابو هريرة: ليس هذا فعل من تعودّ الصيام.

وسأل احد البسطاء جماعة من ظرفاء العرب فقال:

كيف صنعتم يا قوم في رمضان..؟

فقالوا: كنا اذا اتى شهر رمضان، اجتمعنا ثلاثين رجلاً.. فصمناه في يوم واحد واسترحنا منه.

- ودخل شاعر على رجلٍ بخيل، فامتقع وجه البخيل واضطربت اوصاله، وظنَّ ان الشاعر لا بد آكلٌ عنده ذلك اليوم.. وإلا تعرَّض للهجاء، ولكنَّ الشاعر اخذته الشفقة على الرجل فترفق بحاله.. ولم يرض ان يطعم من طعامه.. وانما وصف ذلك البخيل بهذين البيتين فقال:

تغيَّر.. اذ دخلت عليه.. حتى فطنتُ.. فقلتُ في عرض المقالِ
عليَّ اليوم نذر من صيامٍ فأشرق وجهه مثل الهلالِ

* * *

- وكان «اشعب» اشد الناس طمعاً، فدخل على احد الولاة في اول يوم من ايام رمضان يطلب الافطار عنده، وجاءت المائدة وعليها جديٌ، فأمعن فيه «أشعب» أكلاً.. وصال وجال حتى ضاق الوالي ذرعاً به واراد الانتقام من ذلك الطامع الشره فقال له:

اسمع يا «أشعب».. انّ اهل السجن سألوني ان أرسل اليهم من يصلي بهم في شهر رمضان، فامض اليهم.. وصلِّ بهم.. واغنم ثوابهم.

فرد «أشعب» وقد فطن الى رغبة الوالي الانتقام منه: ارجو أن تُعفيني من هذه المهمة مقابل أن أحلف لك بالطلاق والعتاق أني لن آكل لحم جديٍ ما عشت أبداً.

فضحك الوالي.. وأعفاه.

- ولما أوصد المماليك ابوابهم في اوجه الشعراء والادباء.. التحق شاعرنا الكنانة «ابو الحسين» بمهنة «الجزارة»، فلما نهاه صديقه «شرف الدين» عنها لأنها تنقص من قيمته، وتخفض من شعره وادبه، ردَّ عليه «ابو الحسين» بانها تمنعه ضراعة السؤال والاستجداء، وتجعله يمنح اللحم والعظم الى الكلاب بعد ان كان يطرق بالشعر ابواب الكلاب من البشر فلا يمنحونه شيئاً، ثم قال:

لا تلمني يا سيدي «شرف الدين» اذا ما رأيتني قصَّابا
كيف لا أشكر «الجزارة» ما عشتُ.. حفاظاً.. وأرفض الآدابا
وبها أضحت الكلابُ ترجّيني، وبالشعر كنتُ أرجو الكلابا

- وكان رجل فقير يسكن في بيت قديم «يقرقع» سقفه لأية حركة، فلما جاء صاحب المنزل لقبض بدل الايجار قال له الساكن المستأجر: اصلح لي سقف البيت.. اصلح الله حالك.

فأجابه المالك البخيل: لا تخف يا هذا.. إنّ السقف صائم يسبّح ربه.

قال المستأجر: أخشى يا أخا العرب أن يزيد سقف بيتك في التسبيح فيتلو آية من آيات السجدة ثم يخرُ ساجداً فوقي سجدة لايقوم بعدها أبداً...!

- ولعل مسك الختام في هذه الطرائف الرمضانية.. الطرفة التالية التي ذهبت مثلاً في حماقة صاحبها وطيشه، والتي تقول: دخل بعض المغفلين الحمقى من الشعراء مسجد الكوفة يوم الجمعة، وقد انتشر خبر وفاة الخليفة العباسي «المهدي»، وكان الحضور يتوقع قراءة الكتاب عليهم بذلك بين لحظة واخرى، فقام احد أولئك الشعراء.. وقال رافعاً صوته:

«مات الخليفة ايها الثقلان»

فصاح الحضور: هذا اشعر الناس، لانه استطاع ان ينعي الخليفة الى عالمي الإنس والجن في نصف بيت من الشعر فقط.

ومدّ جميع الحضور أسماعهم وأبصارهم اليه باعجاب ليسمعوا «عجز البيت» وتتمة القصيدة، فاذا به يتابع فيقول:

«فكأنني أفطرتُ في رمضانِ»

قال الراوي: فضحك منه كلُّ من كان في المسجد.. حتى المؤذن والإمام، اذ ما علاقة موت الخليفة بإفطاره في رمضان..؟.. ومن يومها صار مثلاً مشهوراً في الحماقة والطيش..!

* * *

تلك هي بعض اللوحات الرمضانية الطريفة التي رسمها لنا عدد من ظرفاء العرب وحمقاهم.. ممن مرّ بهم رمضان المبارك ذات يوم، ولكن ما اللوحات التي رسمها لنا بعض الشعراء القدامى، والمحدثين الذين زارهم شهر رمضان ايضاً واوتوا خيالاً خصباً.. هو الى الفكاهة والتندر اقرب منه الى الواقعية والجد، ذلك انه كثيرا ما تكون المناسبات الزمانية مصدر وحي والهام للشعراء والعباقرة والملهمين والفنانين عبر مسار الحياة الطويل، وقد اوحى شهر رمضان المبارك الى الشعراء والادباء والظرفاء - فيما اوحى - الكثير من المعاني الطريفة، ورفدهم بالعديد من الصور البيانية الرائعة في شتى مجالات واغراض الشعر، نذكر منها على سبيل الأمثلة لا الحصر الاغراض والشواهد التالية:

* في مجال الوصف:

كقول الشاعر «أبي نواس» في فتاة ذات عرقوب طويل وأراد أن يخطبها لنفسه ذات يوم فقال:

نُبِّئتُ أنَّ فتاةً كنتُ أخطبها
عرقوبها مثل شهر الصوم في الطويل

* * *

وقول الشاعر «ابن سكّرة الهاشمي» وهو يصف سوء حاله.. وبخل من حلّ عندهم ضيفاً ذات يوم فيقول:

أما الصيامُ .. فشيءٌ لستُ أعدمه
مدى الزمان، وإن بيتُّ إفطارا
أغشى أناساً.. فأغشى في منازلهم
جوعاً عليَّ .. ولا أغشى لهم نارا

* * *

وقول «أسامة بن منقذ» في السلطان «محمود نور الدين زنكي» وأيامه الملأى بالجوع والعطش:

سلطاننا زاهدٌ.. والناسُ قد زهدوا
له، فكلٌّ الى الخيرات منكمش
أيامُهُ.. مثل شهر الصوم.. خالية
من المعاصي .. وفيها الجوع والعطش

* * *

وقول «ابن العميد» في قاض أفطر خطأً أول رمضان.. وصام خطأً أيضاً أول أيام عيد الفطر:

يا قاضياً .. بات أعمى
عن الهلال السعيد
أفطرتَ في رمضان
وصمت يوم العيد

* * *

* في مجال الغزل:

كقول «ابن الاعرابي» في وصف امرأة يحبها:

فلو كنت يوماً .. كنت يوم تواصلٍ
ولو كنتَ ليلاً .. كنت لي ليلة القدرِ
ولو كنتَ عيشاً.. كنتَ نعمة جنّةٍ
ولو كنتِ نوماً.. كنتِ إغفاءة الفجرِ

* * *

وقول «ثعلب» عن «ابن الأنباري» في وصف امرأة جميلة كان يحبها ايضاً:

لو كنت ليلاً من ليالي الشهر
كنتِ من البيض تمام العشر
بيضاء .. لا يشقى بها من يسري
أو كنت ماءً .. كنتِ غير كدر
ماء سماءٍ في صَفاة صخر
أظلّه الله بِبَعض السِّدر
فهو شفاءٌ من غليل الصدر

* * *

وقول «الوأواء الدمشقي» وهو يسأل حبيبته في يوم شك صامه آخر رمضان، فإذا السؤال ينقلب الى غزل واضح جريء:

سألت من شفّني هواه.. ومن
هاجرني .. مذ عشقته.. النوم
أأفطر الناس..؟ قال مبتسماً:
زيد عليهم في صومهم يوم
فقلت: يا من خسرتُ آخرتي
فيه .. ولم يُغن عنّي اللّوم
إن لم أكن مفطراً على قبلٍ
منك .. فدهري جميعه صوم

* * *

وقول «التّهامي» مُتغزلاً أيضاً في جارية حسناء واعدته أن تأتيه في ظلام الليل.. والناس نيام.. وفعلت فقال:

بدت تحت اوراق الظلام كأنما
تطالعني في وجهها ليلة القدر

* * *

وقول شاعر آخر بعد أن اكتوى بنار الهجر والحرمان ممن أحب:

أهجرٌ .. وسقمٌ.. واشتياقٌ.. وغربةٌ
وعينٌ بلا نومٍ .. وقلبٌ بلا صبر

تمنّيتُ شهرِ الصوم.. لا لعبادةٍ
ولكنْ رجاءً ان اري ليلةَ القدرِ
فأدعوا إله العالمين بدعوةٍ
فيا ربِّ نجِّ العاشقين من الهجرِ

* * *

* في مجال المدح

كقول شاعر مدح مُحسناً .. وشبّهه برمضان وبليلة القدر ايضاً فقال:

نلتَ في ذا الصيام ما ترتجيه
ووقاك الإله ما تتقيه
أنتَ في الناس مثل شهرك
مثل ليلة القدر فيه

* * *

وقول «البحتري» وهو يمدح الخليفة الذي صام رمضان.. ويهنّئه بقدوم عيد الفطر السعيد:

بالبرِّ صمتَ .. وأنتَ أفضلُ صائمٍ
وبسنّة الله الرضية تُفطرُ
فانعم بيوم الفطر عيداً.. إنهُ
يومٌ أغرٌ على الزمان.. مشهّرُ

* * *

وقول «ابن الرومي» وهو يمدح الخليفة ايضاً.. ويُهنّئه بعيد الفطر:

قد مضي الصومُ صاحباً محمودا
وأتى الفطر صاحباً مودودا
ذهب الصوم.. وهو يحكيك نُسكاً
وأتى العيد .. وهو يحكيك جودا

* * *

وقوله ثانيةً.. في الغرض ذاته:

رأى العيدُ وجهك عيداً له
وإن كنت زدت عليه جمالا
وكبّر .. حين رآك الهلال
كفعلك .. حين رأيت الهلالا
رأى منك.. ما منه أبصرته
هلالاً أضاء .. ووجهاً تلالا

* * *

* في مجال الهجاء:

كقول «اللّحام الحراني» في رجل اشتهر ببخله في تقديم الطعام والتقتير به للضيوف:

على عددِ القوم رغفانُهُ
فلستَ ترى لقمةً زائدهْ
أرى الصوم في داره للفتى
- إذا حلّها - أعظم الفائدهْ

* * *

وقول شاعر آخر.. في رجل بخيل آخر ايضاً:

يحذر أن يتخم إخوانهِ
إنّ أذى التّخمة محذور
ويشتهي أن يؤجروا عندهِ
بالصوم .. ولاصائمِ مأجور

* * *

وقول «ابن عبد ربه» في هجاء بخيل ثالث:

لا يُفطر الصائم من أكله
لكنّهُ صومٌ لمن أفطرا
في وجهه من لؤمه شاهد
يكفي به الشاهدُ أنْ يخبرا
لم يعرف المعروفُ أفعاله
قطُّ، كما لم يُنكرِ المُنكرا

* * *

وقول «ابن الرومي» في «رمضان» ذاته:

شهر الصيام.. وإن عظُمت حرمته
شهرٌ طويلٌ.. ثقيل الظل والحركه
يمشي الهوينى.. فأما حين يطلبنا
فلا «السّليك» يدانيه.. ولا «السّلكه»
يا صدق من قال: أيامٌ مباركةٌ
إن كان يكني عن اسم الطول بالبركه
شهر.. كأن وقوعي فيه من قلقي
وسوء حالي .. وقوع الحوت في الشبكه

* * *

وقول شاعر آخر مُتبرم في رمضان ايضاً:

ثقل الصوم علينا
أثقل الله .. عليهِ
زارني بالأمس بدرٌ
كنتُ مشتاقاً اليه
فمضي .. لم أقض منهُ
حاجةً .. كانت لديه

* * *

* في مجال التّندر والفكاهة

كقول أحد الشعراء الظرفاء ممن يحبون الطعام والشراب، ولكنّ «رمضان» منعه منهما، فراح ينتظر هلال «شوّال» بفارغ الصبر:

قلِ لشهرالصيام أنحلت جسمي
إنّ ميقاتنا طلوع الهلال
اجهد الآن كلّ جهدك فينا
سترى ما يكن في «شوّال»

* * *

وقول «الحسن بن رجاء» حين كتب الى صديق له في يوم شكٍ أفطر فيه الخليفة «الواثق»:

هززتُكَ للصَّبوح.. وقد نهانا
أمير المؤمنين عن الصيامِ
وعندي من قنان المصر عشراً
تطيبُ لهنَّ دائرة المدامِ
فكن أنت الجواب .. فليس شيءٌ
أحبَّ اليَّ من حذف الكلام

* * *

وقول «أبي نواس» حين كان يقوم بنزهة مع الامير «ابي عيسى بن الرشيد» ببلدة القفص»[٢] عصر آخر يوم من ايام شهر شعبان، فقال له احدهم: هذا يوم شكٍ يا أبا نواس، وبعضُ الناس يصومه احتياطاً.

فردَّ ابو نواس: ليس الشكّ حجة على اليقين، وقد حدَّثنا «أبو جعفر» عن.. عن.. عن.. الى ان رفعه الى الرسول العربي الكريم «محمد صلى الله عليه وسلم» انه قال: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته» يعني هلال شهر رمضان ثم أنشد قائلاً وهو يخاطبُ الأمير «أبا عيسى» الذي كان يتنزّهُ معه:

لو شئت لم نبرح من «القفص» نشربها
حمراءَ .. كالفصِّ
نسرقُ هذا اليوم من شهرنا
فاللهُ قد يعفو عن اللّصِّ

* * *

تلك هي بعض اللوحات الطريفة التي رسمها لنا بعض الظرفاء والحمقى والشعراء، والتي اردتُ من خلالها أن أروح بعض الشيء عن جمهور الاخوة الصائمين واداعبهم، ويقيناً أنّ حياة البادية ومافيها من شظف العيش وقسوة الحر كان لها أثرها فيما قاله الشعراء في هجاء رمضان خلال العصرين الاموي والعباسي، هؤلاء الشعراء الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الاخر وفرضية الصيام عليهم كركنٍ من أركان الاسلام الخمسة، وها هوذا الشاعر الماجن« أبو نواس» يكتب ما يكتب في آخر حياته مُكَفِّراً عن سيئاته.. عائداً الى الله الغفور الرحيم.. متوسلاً الى ان يعفو عنه ويغفر له ذنوبه كما سبق واشرنا الى ذلك، وكذلك فعل مثله الشاعر «ابن الرومي» وغيرهما.. ذلك ان حياة البادية من جهة.. وطبيعة وميل بعض الشعراء الى اللهو والشراب ممن عاشوا في الحضر من جهة ثانية هما العاملان الرئيسان اللذان كانا يُباعدان بينهم وبين رمضان في كثير من الاحيان.

وبالرغم من انني شاعر منذ ربع قرن او يزيد.. الا انني من الذين يؤمنون حتي العظم بالآيات الكريمة: «والشعراء يتبعهم الغاوون - ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون - وأنهم يقولون مالا يفعلون» الخ السورة الكريمة، وبالقرآن الكريم والسّنّة الشريفة، ويرون أنّ تلك الآيات قد صوّرت الشعراء خير تصوير.. ووصفتهم بما هو فيهم، واعطتهم حقهم كاملاً غير منقوص.

هذا ما أردتُ قوله في نهاية هذه الرحلة الطريفة مع الظرفاء والحمقى والشعراء خلال شهر الصيام المبارك «الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّناتٍ من الهدى والفرقان»، أعاده الله على الجميع باليمن والخير والبركات.. والصحة والتوفيق والنجاح.. وكلّ رمضان والقرّاء - ومن يحبون - بألف خير.

الشاعر العربي جابر خير بك في ديوانه الأخير ضحى

بقلم: خالد قوطرش

«والضحى والليل اذا سجى»

كلمة (ضحى) كلمة عذبة فيها رقة ورشاقة وموسيقا..

وهي كلمة تدل على آفاقٍ واسعة اجلّها النور.. النور الذي يشرق على الكون بعد ظلام الليل الدامس. والشعر في معناه ومبناه وفي شكله ومضمونه نور.. نور يشع على الحياة بأسرها، ولا سيما على الذين اوتوا حساً مرهفاً وموهبة فياضة في التفكير والتعبير. وقد سبق لهذا الشاعر الموهوب جابر خير بك ان اصدر عدة دواوين كان أخرها (ضحى). ديوان ضحى يضم (٤٧) قصيدة. قيلت في مناسبات واغراض متعددة في مهرجانات ادبية ووطنية وقومية كتب مقدمة الديوان بقلمه النقاد الوقاد الاديب الكبير الدكتور شاكر مصطفى محللاً ومفنداً قصائد الديوان، مبيناً ما للشاعر وما عليه، ومقدراً في الوقت نفسه هذه الشاعرية المنيرة.. والديوان من منشورات دار الثقافة بدمشق. وقد زين الغلاف صاحب الثقافة الاديب الكبير مدحة عكاش بكلمة بليغة جامعة مانعه حيث يقول:

«أجد الشاعر جابر خير بك في مجموعته الثانية هذه اكثر ثقة بشاعريته والتعبير عن عواطفه بأسلوب قلما نجد له نظيراً عند شعرائنا المعاصرين، فقد استخدم اللغة استخداماً محكماً وانقادت له القوافي طائعة لا تكلّفَ فيها ولا جهد فكأنه يغرف من بحر.

اعتقد ان المصدر الوحيد لهذا الاسلوب الرائع ثقافة عالية في اللغة ومفرداتها والالفاظ ودلالاتها مما لم تجد منه الا اليسير في ايامنا هذه.. واعتقد ان هذا الاسلوب خير شفيع للشاعر جابر لتحيل المكانة المرموقة بين شعرائنا المعاصرين..

قرأت هذا الشعر الجميل او على الصحيح، قرىء عليَّ، فأنصت بتأمل عميق، الى هذا الكلام الموزون المقّفى العذب.. الذي يجمع بين عذوبة الالفاظ ورشاقة التعبير وسلاسة السبك ومرونة الحبك، وبكارة المعاني وسعة الخيال وبهاء الالوان، والق الصور ومرح النكتة ونغم

الجرس والايقاع...

«فالشعر مرآة مافي الصدر من شجنٍ يخطه الفكر موزوناً ويرويه.».

هذا شعر يفيض وجداً وحناناً وحباً وشوقاً وهياماً وعطراً وعاطفة ورقة وخمراً. هو الشعر من اي النواحي أتيته فبهجته الابداع والخيال الرحب ذروته.. لقد اضحكني هذا الشعر وابكاني. اضحكني في قصيدته التي قالها في زواج صديقه الاديب «اسعد عبود» بعد عزوف مديد عن الزواج. والفنان بطبعه عزوف عن الزواج لانه قيد اجتماعي:

يا أسعد يا من جنى نعم البداوة والحضر
أهلاً وسهلاً بالذي ترك العزوبة واحتضر
إنا نرحب بالإياب لغائب بعد السفر
وسنرفع الاقواس ترحيباً على هام الشجر

* * *

والفنان يأبى القيود والحدود، ويثور على كل ما هو عتيق وجامد. الم يقل إمام البلغاء مصطفى صادق الرافعي: «يبقى الرجل عقلاً حتى يتزوج.»

وقصيدتاه «المغتربون» و«نجوان» ذلك الفتى الذي مات في ديار الغربة لا أهل له ولا وطن.. ابكاني هذا الشعر كثيراً.

ومن الشعر ما يبكي ويضحك.. استمع الى نجواه وحنينه:

هنا الوطن الغالي لكم في عيونه مكان فسيح وارف الظل منعم
أعز مكانٍ للمجدِ بلاده وفي ظلها يسمو الأبيّ ويكرم
فكسرةُ خبز تحت ظل عريشة وجرعةُ ماء هام في طعمها الفمُ
تناديكم الاوطان يا من بعدتم عن العين حتى ضيع اللحنَ ملهم

* * *

وفي قصيدة نجوان يقول:

نجوان كيف تركتنا نبكي الشباب ولم يطيب
دمع عليك نصبه والقلب حيران كئيب
حملتك أيدي النائبات وكنت في المنأى صليب!

* * *

والشعر الذي يُبكي ويُضحك يمتلك أعنّة الكلام وأشرعة الخيال واسرجة السمو، تلك قدرة لا يتمتع بها الا الموهوبون. وشاعرنا موهوب متمكن من شعره وقابض على ناصيته الاوزان والقوافي.. إنه اليم واليم كالليلِ أو اعمقِ، فيه اللآليء والأنجم، وفيه الدر والأدهم.. والشاعر جابر يدافع عن الشعر العربي الاصيل، شعر امرىء القيس والمتنبي واحمد شوقي وبشارة الخوري.

وزيّفوا قيم الفصحى ورونقها وحاربوا ربه الألحان بالصمم
داسوا الاصالة واحتالوا على لغة كانت لكل لغات الارض كالعلمَ
فالوزن واللحن من أسمى الكنوز بها فكيف نتركها لحماً على وضمِ!

* * *

ويقول في قصيدة اخرى:

شنّوا على الاسلاف اشرس حملة ضد التراث وقدسوا المنقولا..
رجموا عباقرة البيان وزوروا، قيم الجمال ومثلوا تمثيلا!
وقضوا على الجد التليد ونكلوا، بالشعر في اوزانه تنكيلا..
فليتركوا صنع الجرار لأهلها، فالعلم يرجم جاهلاً وكسولا!؟

* * *

الشعر يا أخي! شعر والنثر نثر، فلمَ البندقة؟! وفي مهرجان الشعر الذي انعقد منذ مدة قريبة، في القاهرة، تساءل الادباء بماذا يسمون هذا الكلام الخالي من الوزن والقافية؟ أيسمونه شعراً وهو ليس بشعر؟! أيسمونه نثراً؟ وهو ليس بنثر! ثم قالوا فلنسمه (الشعر المنثور) وقد تكون هذه التسمية اقرب الى الحقيقة!! إنه نثر من نوع معين يرضي صاحبه وينفس عن عجز مقعد يحاول الجري، وهو لا يمتلك ادوات الجري.. ولسنا ولله الحمد، سكارى حتى نرى القبيح غير قبيح..

ارجو ألاّ يظن القارىء الكريم بأنني ضد تجديد الشعر العربي وتطويره، كلا!

وألف كلا فالحياة بطبيعتها متطوره، فكرياً واجتماعياً وفنياً واقتصادياً وسياسياً.. لا شيء ثابت، ولا شيء جامد كل شيء يتحرك.. هذا أمر لابد منه ولا جدال فيه.. ولكنني وجميع الحريصين على الشعر العربي الاصيل مع الحسن الى الاحسن ومن الجميل الى الاجمل منوهاً في الوقت نفسه، بأن القليل مما يسمى بالشعر الحديث جميل ومقبول، وان اكثره مرفوض ونشاذ.. ولنعلم اولاً وآخراً، ان الشعر سليقة وموهبة تولد مع الشاعر وان الدراسة ومطالعة شعر الشعراء الكبار وحفظه ورويه كل هذا الجهد الادبي المتواصل يصقل الموهبة ويفتحها ولكن لا يخلقها..

إن انظمتنا التعليمية في البلاد العربية وفي جميع مراحلها الثلاث: الابتدائية والثانوية والعالية تستطيع ان تعطي الوطن كل عام، آلاف الاطباء والمهندسن والمحامين، ولكنها عاجزة عن خلق شاعر او فنان، اذا لم يكن هو في الاصل موهوباً!؟

ولا يبلغ هذا الشأو إلاّ اصحاب السليقة السامية، والعفوية النادرة!! وشاعرنا من هؤلاء الشعراء الذين سعى الشعر اليهم ولم يسعوا اليه.. يقحمون انفسهم في اجوائه اقحاماً، كما تقحم الزنابير نفسها في خلايا النحل لجني الشهد والعسل... وهي لا تحصل، في آخر الامر، الا على الخجل والفشل...!

يظن بعض المتأدبين والمتطفلين على مائدة الادب ان الوزن والقافية قيود عفا عليها الزمن، تكبل الشاعر.. ولو تعمق هؤلاء في فن الشعر لتبين لهم: اذا كان لديهم بيان، بان الاوزان والقوافي هي حوافز ودوافع لتفجير ينبوع الشعر، فينساب كانسياب مياه الانهار والجداول في السهول الخضراء والرياض الغناء؟!.

استمع الى شاعرنا حيث يقول:

فالوزن واللحن من اسمى الكنور بها ... فكيف نتركها لحماً على وضم؟!
تقضي النسور اذا حانت منيتها ... على الذرى الشم لا في الملعب الرخم!؟

* * *

فليرأف اولئك المتنطعون بانفسهم. فإن طائر البطريق الذي يسرح على السواحل، لا يمكن ان يصبح نسراً يحلق فوق ذرى الجبال.. وهل يعقل ان تنجب النملة فيلاً، والفارةُ العرجاء وعلاً؟

لشعر جابر خير بك لون خاص، وبنية خاصة، اذا قرأت قصيدةً له في صحيفة او مجلة، عرفت بالحدس والمقارنة انه شعر جابر.. تلك معلمةٌ من معالم الشاعرية المستفيضة!.

ومن جميل شعره. وشعره كله جميل، قصيدته (ولدي) الطافحة بحنان الابوين نحوولدهم الوحيد المسافر الى بلاد بعيدة. هي بمثابة لحن من سنفونية حزينة، تعزف على اوتارها آلام الاباء الملوعين بفراق اكبادهم الذين كانوا الامل المرتجى لشيخوختهم. فوجدوا انفسهم وحيدين تلفهم الوحدة والمرض والعجز ويهدهم الحنين والشوق والبعاد، ويضنيهم السهاد، وقد حرمت اجفانهم، نعيم الرقاد!!

ولدي اتترك متعباً وتغيبُ، ... رحماك! مزقت الفؤاد ندوب..
وطويت خلف جوانحي همّ النوى ... وحملت مالم يحتمله صليب!
في كل ثانية وكل هنيهة ... ذكراك تعبرخافقي وتجوب!
تركت والدك المعذب حائراً ... وتركت والدةً عليك تلوب
وتركت اخوتك الصغار ودمعهم ... فوق الخدود على البعاد سكوب!
ولدي وحبك ما بعدت عن الروى ... يوماً وطيفك في العيون قريب..
اتذكر الماضي وعهد طفولة ... فيشبُ خلف المقلتين لهيب
وأعود للذكرى الحبيبة كلما ... خطر البعاد بخاطري فأغيب
بين الحنين وبين لوعة متعب ... دنف بجرح اصفريه وحبيب

* * *

وما اجمل هذين البيتين في وصف دمشق.

احلى النجوم على يديك تساقطت ... نشوى تلملم ذيلها المبلولا!؟
وجنت عليك الشمس تغسل وجهها ... بردى، فتأبى عن سماك أفولا؟!

* * *

ومن جميل شعره: قوله في حفيده:

اذا حضنتك كلُّ الكونِ مملكتي
وان لثمتك لا شهدٌ ولا ثمرُ!!
قد صرتَ لعبتيَ الكبرى فيا فَرحي
أعود طفلاً ولو وافني الكبرُ

*　　　　*　　　　*

وقوله:

سرُّ الحياة محالٌ ان تفسرَهُ
يبقى عجيباً مدى الاباء والعُصرِ!
لكنني اليومَ ابكي لوعةً واسى
مرّ الشبابُ وماتَ اللحنُ في الوترِ؟!

*　　　　*　　　　*

وقوله:

وقاسمتها الاحساس والعمر ردّني
ونفسي تقول الآن: قم ودعِ العمرَ!
وغابت وخلتني وحيداً ملوعاً،
أعيش على الذكرى فقد تنفع الذكرى

*　　　　*　　　　*

وقوله:

كل النجوم على الذرى وعلى الربى،
نزلت تلاعب بعضها بحنانٍ؟!

*　　　　*　　　　*

وهكذا فإن آفاق هذا الشاعر واسعة ورحبه، فهو اذا مدح تعففْ، واذا ذمّ تلطفْ وإذا وازن بين الادباء انصفْ، وأخيراً اذا تغزل وتذكر حبه السالف رقّ واستعطفْ

ولد ونشأ الشاعر جابر خيربك في محافظة اللاذقية من سورية وتخرج من كلية الحقوق بدمشق..

ولكنه لم يعمل في المحاماة بل انصرف كلّياً الى هوايته التي خُلق لها، يداعب الاوزان ويلاعب القوافي..

وعتبي على هذه الشاعرية الفذّة، وفي كل اعجاب عتاب، تغضيها عن قضايا الانسانية الكبرى كالظلم والعدل، والطغيان والامان، والغنى والفقر والسلامة والقهر، والاحتلال والاستغلال، والحرية والاستبداد وطرد الشعوب من اراضيها وابادتها بالاسلحة الجرثومية الفتاكه. والمذابح الجماعية التي يقترفها السفهاء والحمقاء، المتعصبين في الدين والعرق، والدين منهم براء، تعصباً اسود اعمى.. تُرتكبُ هذه الجرائم الرهيبة، على مرأى ومسمع من هيئة الامم ومجلس الامن، والمجلس يتفرج بل يؤيد مع الاسف الشديد الباطل المسلح ويخذل الحق الاعزل؟! والفنانون عادةً ولكل فنان همومه واحزانه، يشعرون، قبل غيرهم بآلام الشعوب.. والشاعر المغنْ بطبعه يكره الظلم ويعشق الحرية ويتَمنى السعادة للبشر اجمعين.. لا تعصب عنده ولا كراهية ولا حقد.. شعره المحبة والتعاون: انه لسان رحمة للإنسانية جمعاء!!

إن الشاعر ناظم حكمت اصبح شاعراً عالمياً بقصيدة واحدة التي مطلعها:

« يا صاحبي ! اذا لم احترق انا، ولم تحترق انت، ولم يحترق هو فكيف يخرج من الظلمات نور ؟!»

هكذا هُمُ الشعراء الموهوبون، وهكذا يحب ان يكونوا...

منهم ليسوا للعشق والصبابة، والهوى فحسب، انهم للإنسانية جمعاء. لآلامها، لأفراحها واتراحها..

يثورون على الظلم والطغيان ويكافحون ضد التسلط والعدوان!! هذا هو الشعر وهذه هي رسالته وكل شاعر أو فنان يعتبر نفسه مسيحاً جاء ليخلص البشر من الآلام والاحزان ومن الآثام والأدران!؟ وإن شاعريةً كشاعرية جابر خير بك لخليقةٌ بأن تؤدي هذه الرسالة النبيلة بكل شجاعة..

ولوان الحياة تبقى لحيٍ
لعددنا أضلّنا الشجعانا»

*　　　　*　　　　*

ومهما تتعدد الآراء والاتجاهات وتتصارع الكلمات، فإن الشاعر جابر خير بك، وهو لا يزال في شَرخِ شبابه، سيتبؤوا بلا ريب منزلة رفيعة في سماء شعراء العربية المبدعين، في القديم والحديث..

وانه جَوادُ سباقٍ، في حلبة ميدان الادب العربي وتطويره وتحديثه وجعله ادباً عالمياً، يتخطى الزمان والمكان لا قيود له ولا حدود حدوده هذا الكون اللامتناهي!

ومن يبح في اللانهاية، يلج في الخلود!!

المحاضر

بقلم:
محمد الشقحاء

اخذ يعد درجات سلم المنصة.. واحد.. اثنان.. وكانت الثالثة سطح المنصة التي تربع فوقها كرسيان وطاولة انتصب عليها لاقطان للصوت وكأسان من الزجاج الابيض وسطل ماء صغير فوق سطحه قوالب ثلج ملفوف بفوطة بيضاء.

جلس فوق اول كرسي ثم اخذ يقلب اوراقاً دسها تحت ابطه وهو يتجه الى المنصة. طال تقليب الاوراق دعك جبينه بيده اليمني ثم اخذ يتأمل الكراسي الفارغة المرصوصة امامه.

(اخواني.. الاوراق بين يدي فارغة بمعنى اصح بيضاء. خالية من اي حرف.. ايها الاخوة.. لقد نسيت نص المحاضرة.. انما في الذاكرة شيء مما كتبت فأرجو المعذرة.. اذا كان هناك اسقاط.. او تقمص هفوة).

وصمت.. توقف عن الكلام.. وران الصمت لم تنبس المقاعد بكلمة.. تحرك قليلاً من الماء في احد الكأسين..

(أيها الاخوة.. منذ بدء الخليقة.. والانسان يبحث عن مكانه المناسب.. و.. و..).

خرج من بين المقاعد طفل في الثالثة من عمره رث الثياب يطارد شيئاً غير مرئي واخذ صوته الطفولي الجذل يملأ القاعة.. سحنته المعروقة تدل على انه يحتاج الى عناية فائقة في التغذية حتى يصبح سوياً.

شعر بالارتباك.. نهض من مكانه بعد ان توقف الطفل عن الركض بين المقاعد تأمل الواقف على المنصة.. انفجر باكياً ثم اندس خلف احد المقاعد وتلاشى.

اصلح من وضع عقاله.. ثم ثنى اطراف غترته.. وعاد الي الجلوس.

(آسف لتوقفي عن الحديث ـ ضاحكاً انما اين وصلنا في النقاط ـ أمل ان يساعدني احدكم..).

ران الصمت.. لم تكن هناك اجابة فورية..

(آه... آه.. تذكرت.. ان المرحلة التي قطعها الانسان حتى وصل الى وقتنا الراهن.. تجاربه فيها اكبر من الزمن.. او استيعاب المساحة المكانية فلو تلفتنا يميناً.. وشمالاً..).

صمت واخذ يتلفت يميناً وشمالاً ولاحظ اثناء ذلك ان هناك بريقاً فوق الجدار الذي عن يمينه للقاعة.. اخذ يدقق لمعرفة كينونته.. اخذت تصغر فتحتا عينيه وتصلبت يده اليسرى فوق الاوراق بينما ارتفعت يده اليمنى وهي تشير الى مكان البريق الذي انفصل عن الجدار واخذ يقترب..

كانت عينين بشرية مثلجة. اخذت تتراقص فوق المقاعد وهديراً حاداً يملأ القاعدة عند كل حركة تصدر منها. وفي وسط القاعة توقفت العينان عن التجوال... واخذت ذرات من الغبار تتكون متقاطرة من جميع الاتجاهات لتبرز فتاة جميلة التقاسيم في الثلاثين من عمرها ترتدي ثوباً ابيض فضفاضاً. وقد ربطت وسطها بحزام اسود واخذت تتلوى راقصة.. ترسم بأقدامها الحافية على ارض القاعة وبين صفوف الكراسي خطوات متناغمة.. والهدير يرتفع بين لحظة واخرى.

وضع رأسه بين كفيه على الطاولة.. واخذ يتأملها في هدوء.. وتخلص من لحظة المفاجأة.

(أيها.. الاخوة..)

دفن رأسه في الاوراق التي بين يديه.. ثم غير وضع النظارة.. على أرنبة انفه..

(عندما احترق.. هذا الكون.. بعد وجوده الاول.. حل الطوفان الذي انقذ البشرية من النهاية المظلمة).

رفع رأسه .. صوب نظره الى الموقع الذي ترقص فيه الفتاة فلم يجدها وخيم الصمت على القاعة.

(كان التكون الجديد.. الذي معه انطمست معالم الحضارات القديمة.. لتكون حضارة جديدة.. ومن خلال السياق التطوري ما نحن فيه الآن.. اذ..).

هنا ارتفع صوت سيارة اسعاف.. وهمهمة اصوات لا تميز لنساء ورجال واطفال.

ويرتفع بكاء وليد صغير. اخذ يتموج مع صوت منبه سيارة الاسعاف ويعلو على الاصوات المختلطة ويتجانس مع صوت موذن اخذ يردد .. الله اكبر.. الله اكبر..

وواصل حديثه.

(اذ ان الانسان لم يوفق في اختيـ[illegible] الطريق الحقيقي للانعتاق.. هنا كـ[illegible] اتباين وكانت الحروب.. ومعها اندثرت ا[illegible] وثم قتل.. ثم قتل.. طفل في مهده.. طفل).

وانكب على الطاولة بقسوة الام[illegible] الذي معه ارتطم جبينه باللاقط فانبثـ[illegible] الدم. مسح بكفه على جبينه واخذ يتأ[illegible] بقعة الدم.. وامسك بطرف غترته وبلـ[illegible] في الماء ثم اخذ قطعة ثلج من سطل المـ[illegible] ووضعها على مكان الجرح.

(ايها السادة .. لم يعد هناك مكا[illegible] مقدس بعد ان استباح الانسان ـ الالي كل شيء لم يعد في المعمورة مكان آمن انهم يقتلون الزهور.. بأحذيتهم السودا[illegible] ذات الحدوة الحديدية.. يقول الشاعر الشاعر).

ويتحرك اللاقط الاخر المنصوب عل[illegible] الطاولة من مكانه في جلبة واضحة..

(هو يمشي والموت في خواته
عاثر الحظ بانتظار مماته
شاحباً
يائساً
حزيناً كئيباً.
واحتضار السرور في بسماته)

رافعاً كفه عند كل مقطع يقوله..

ويتوقف عن النطق.. فمه مفتوح يده اليمنى مرفوعة الى مستوى الرأس. وعيناه شاخصتان في الفراغ وخـ[illegible] ارجواني اللون ينز من جبينه منداحـ[illegible] على انفه وفمه المفتوح تخرج منه كلمات وحروف متناثرة اخذت تنداح نحو المقاعد كسيل لجب، اخذ يجرف ما في طريقه مز[illegible] اشجار .. وناس.. وحجارة في اتجاه غير محدد. ويرتفع تصفيق حاد.

ادلهم الظلام.. شمل القاعة هدوء غريب.. وارتفع وقع اقدام تسير.. اخذ الوقت يتلاشى وينبثق ضوء من سقف القاعة اخذ يتجول بين المقاعد ويبرز ظل انسان طويل ويصل الضوء الى المنصة. واذا بالمحاضر يدفن رأسه بين يديه فوق الطاولة بشكل عادي كمن راح في .. سبات عميق...

اركولوجيا

الفن الميثولوجي

بقلم:
عبد الحكيم الذنون

نشأ الانسان على هذه البسيطة في ظروف تكاد أن تكون مساحات هائلة تستلزم الاحاطة بما يتلاءم وطبيعة التفكير الانساني - اي طبيعة تفكير الانسان البدائي واستيعابه الامور - حيث يبدو لأول وهلة كائناً عياناً يعيش وضعاً مجرداً في ظروف مليئة بكم هائل من التساؤلات.

وازاء مسألة تفاعل الانسان مع الطبيعة ومع ظروف الحياة، بدأ يخوض غمار مراحل تجريبية وسعت مداركه وحفزته على البحث في الأصل والتكوين والسيرورة، فاتخذ الآلهة منذ أقدم العصور كنماذج مقدسة يلتجيء اليها ويمارس الأعراف الطقوسية تقرباً إليها، وقد صُنفت تلك الآلهة بما ينسجم مع تعدد المظاهر والأدوار والفعاليات والأحوال والظواهر الطبيعية والحياتية.

وبادىء ذي بدء عاش انسان ما قبل التاريخ في الكهوف والمغاور والملاجىء، وقام بتحصيل قوته ومسلتزمات حياته عن طريق الجمع والإلتقاط، ثم اخذ يصطاد الحيوانات معتمداً على تقنيات بدائية، ومن ثم تطورت تقنيات العصور الحجرية لا سيما بعد اكتشاف الزراعة ونشوء القرى الاولى فأخذ يستقر نسبياً ويسكن البيت ويزرع الحقل ويدجن الحيوان.

وقد بدأت ملامح التأمل في الكون والحياة تتبلور إبان نشوء المدن الأولى، اذ تلتها مرحلة البرتولتريت وهي مرحلة بدء الكتابة والآداب والتدوين التاريخي بعد اختراع الكتابة لأول مرة في منتصف الألف الرابعة ق.م وهي مرحلة البداية في عصر التنوير في مرحلة العصور التاريخية.

واستندت نصوص الكتابات والأعمال الأدبية بما فيها الأساطير الى هذه الموضوعات المتعلقة بالنظرة ازاء الكون وتقديس الالهة، اضافة الى شؤون الحكم والادارة وفعاليات الدولة واخبار الملوك وسيرهم باعتبار ان تعيينهم يتم عن طريق الالهة وهم وكلاؤها على أرض الواقع، وبذلك اتخذت تلك القصص والاساطير والملاحم من الملوك والمتميزين أبطالاً في خط حدثها الدرامي.

نموذج جلجامش.

ومن أهم الأعمال الابداعية ومقطوعات الأدب الميثولوجي التي اشتهرت في تاريخ الآداب العالمية ملحمة جلجامش التي عالجت جملة موضوعات من خلال محاورها المتضمنة مشاهدة تصور رحلة الانسان التوّاق الى الخلود، وقصة صراعه مع نماذج عدة تشكل صور الحياة المعاشة في ظل احتكار الآلهة للأزلية والخلود، وظروف هيمنة هذه الالهة على الناس مع العلم ان تفكير الناس بما يحيط، وبما هو خاف وظاهر للعيان على صعيد التكوين الحياتي الشامل هو الذي برر وجود الاله وارتقى به الى هذه المصاف.

ومما يقال بشكل اجمالي عن تأليف هذه الملحمة، ان المؤلف او المؤلفين وفقوا في جميع الجزأين الأولين وحوادث الطوفان، الشهيرة مما جعل الملحمة كلها تبدو وحدة فنية مطردة، ويعود زمن الاكتشاف الاركولوجي لألواح الملحمة الى القرن التاسع عشر حيث تم الحصول على نسخ من ملحمة جلجامش باللغةالبابلية والآشورية ويرجع معظمها الى الألف الثاني ق.م، وهي:

أولاً: في نهاية القرن التاسع عشر اقتنى الآثاري برونومايسز كسرة أثرية كبيرة من مجرمي البيع والمتاجرة بالآثار في بغداد، ثبت من مضامين نصوصها ان مصدرها من المدينة القديمة ـ سبار ـ كما ان زمنها يعود الى العهد البابلي القديم، وانها تتبع نصوص اللّوح العاشر من ملحمة جلجامش.

ثانياً: في عام ١٩١٤م حصلت جامعة بنسلفانيا على لوح كبير كامل تقريباً يضم ستة حقول من الكتابة ثبت انه اللّوح الثاني من ملحمة جلجامش، وان زمنه يرقى الى العهد البابلي القديم ايضاً.

ثالثاً: كما حصلت الجامعة نفسها في حدودذلك الزمن أيضاً على لوح آخر هو الأصل البابلي القديم للوح الثالث من ملحمة جلجامش.

رابعاً: سبق للمنقبين الاثاريين الألمان في مدينة آشور قبيل عام ١٩١٤م، أن وجدوا كسرة من الملحمة وهي كسرة كبيرة تعود الى نصوص اللوح السادس من« الملحمة».

خامساً: في عام ١٩٢٨م، وجد المنقبون الألمان في الوركاء قطعتين كبيرتين تعودان الى نصوص اللوح الرابع من الملحمة.

سادساً وجد في حاتوشاس عاصمة الحثيين بعض الاجزاء العائد الى اللوح الخامس من الملحمة، كما وجدت ترجمات الى اللغة الحثية وأجزاء مترجمة الى اللغة الحورية.

سابعاً: ووجدت كسرتان من تنقيبات البعثة الأركولوجية العراقية في تل حرمل بين ١٩٤٥-١٩٥٩م تعود نصوصهما الى مادة الملحمة.

ثامناً: عثر في عام ١٩٥١م على نصوص الملحمة في الموضع القديم المسمى سلطان تبة.

تاسعاً: تم العثور على جملة كسر متنوعة من الملحمة تعود ايي العهد البابلي الحديث.

عاشراً: كما تم العثور لأول مرة على كسرة تعود الى الملحمة في موضع ـ مجدو ـ في فلسطين، تعود الى القرن الرابع عشر ق.م.

وبالرغم من بعض الخروم والتشوهات التي أدت الى عدم الوضوح في بعض مواضع ألواح الملحمة الا اننا نعتبرها كاملة من الناحية الفنية التقنية في معظم محاورها، حيث ان بعض المحاور غيرالواضحة وهي قليلة قد اكملت اجتهاداً، وقد ظهر لهذا النتاج الميثولوجي تراجم عدة، وحظيت باهتمام الباحثين والدارسين في مجالات الآثار والتاريخ والآداب والفن.

الموسوعة الأدبية

أدباء من وطني

والجزء الثاني

بقلم:
مفيد نيزو

بعد صدور الجزء الاول من كتاب الاستاذ ميشيل البشارة الموسوعي «أدباء من وطني»، الذي ضم بين دفتيه كوكبة من الأدباء الأعلام في قطرنا العربي السوري، تابع المؤلف الجهد، وحث الخطا في عمله الشاق مثابراً على تأريخه وتوثيقه للأدب العربي المعاصر في سلسلة ستبقى للتاريخ خير مرجع، وأصدق صورة تعبر عن أدب هذه المرحلة الهامة في تاريخ قطرنا العربي الحبيب، ومن ثم في تاريخ وطننا العربي الكبير، وقد صدر له عن دار عشتروت بدمشق الجزء الثاني من هذه السلسلة القيمة الهامة، مضمناً إياه دراسات وبحوث تناولت كوكبة اخرى من الاعلام الكبار الشوامخ الذي سطروا في سجل المجد العربي حروفاً لا تنسى، وستبقى نبراساً مضيئاً على دروب الحق والحب، والشمس والفجر والحرية.

لقد أهدى المؤلف كتابه الى: من أهدته السماء في حلكة الظروف منارة على مرافئ الحرية، الى الربان الوحيد، والأمل الذي يستلهم من جذور التاريخ المشرق حضارة أمة بل أمجاد حاضرة ومستقبل.

لسيادة الرئيس حافظ الأسد، معلمنا الأكبر.

عربون حب ووفاء.

وجاء التقديم بعدئذ بقلم رائد الاشتقاق اللغوي الشاعر الملهم أحمد أسعد الحارة الذي قدم الكتاب بمقدمة ثرية ويتيمة في محتواها بين المقدمات لما فيها من إلمام شامل، وقدرة خلاقة على التعريف بمضمون الكتاب وغايته النبيلة، ومما جاء في المقدمة: «واذا كان الكتاب الثاني امتداداً موسوعياً للكتاب الاول، فإنما هو كمثله يؤكد أن المؤلف يواصل الوقوف على عتبة الحقيقة

الثقافية لهذا الوطن الكبير، متجاوزاً في ذلك «أصفهاني» العصر العباسي الذي وقف أغانيه على الشعر وحسب».

ثم تطرق الى أهمية العمل الذي يقوم فيه المؤلف اذ قال:

«إنه في عمله الموسوعي هذا يرفد تاريخ الادب العربي حين التاريخ خزان الأمة الثقافي تنهل منه وقت تشاء، ولذلك بادر الباحث التاريخي منذر حمودي في ادراج اسم الاستاذ «البشارة» كواحد من مؤرخي الأدب العربي المعاصر في موسوعته التاريخية التي يعدها في اثنين عشر مجلداً.»

وبعد هذه المقدمة المتفردة النادرة، نقف مع الكتاب في قوله: إن الجزء الاول من ادباء وطني لاقى الترحيب الجم، والاعجاب الواسع، والمباركة الحقيقية الصادقة، والعرفان بالجميل من أقطاب الأدب والثقافة في قطرنا العربي الحبيب، وقد وقف العديد موقف الذهول والدهشة من عملي هذا! سيما عندما علموا ان عملي عربي واسع ينأى عن الاقليمية بل سيكون لأدباء الوطن العربي كاملاً، وبمختلف اقطاره اجزاء خاصة تعرف بهم، وتبحث في اعمالهم وابداعاتهم، ودورهم في ترسيخ حضارة الكلمة، والارتفاع امتداداً بما يلائم روح العصر، وينسجم مع الجديد الذي أرسيت قواعده، وارتفعت صروح دعائمه، وسمقت أركان بنيانه.

ثم يبدأ المؤلف رحلته دارساً وموثقاً لحياة الأدب، ومسيرة الكلمة لدى الأديب الخبير والصحفي الحصيف القدير مدحة عكاش الذي سماه مقدم الكتاب «ذو الثقافتين» فنقرأ في سيرته الذاتية أنه من مواليد درعا عام ١٩٢٣، وهو حموي مواطنة، ودمشقي إقامة، ثم نيله اجازة الحقوق من جامعة دمشق بعدما تعلم الابتدائية والثانوية في حماة، ثم نجده قد درس الأدب العربي في ثانويات دمشق الى جانب علمه الصحفي، وعمل مديراً لكلية دمشق العربية، ثم نقيباً للتعليم الخاص، وترأس العديد من الجمعيات الادبية، وهو عضو في لجنة الشعر التابعة للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وعضو في اتحاد الكتاب العرب، وهو مؤسس مجلة الثقافة في شهر ايار سنة ١٩٥٨، وجريدة الثقافة، وداراً للنشر.

ومن مؤلفاته المطبوعة:

- ابن الرومي دراسة ١٩٤٨، رسائل الجاحظ دمشق ١٩٦٦.
- القصائد الأولى لبيتر تومبست مترجم عن الانكليزية، كتاب الثقافة ١٩٧٠.
- بدوي الجبل دراسة ومختارات ١٩٦٨.
- ديوان شعر ياليل ١٩٨٠.

وله من المخطوطات:

- أوراق عمر، صحيح اللغة، مجموعات قومية، وقد اصدر أعداداً خاصة تعتبر بحق مرجعاً ثميناً عمن خصصت له،و حفلت بأدبهم الرصين وأعمالهم الجليلة.

نال جائزة جبران العالمية من رابطة احياء التراث العربي في اوستراليا تقديراً للدور الكبير الذي يقوم به في الادب المهجري المعاصر، وربطه المغترب بالمقيم، وقد أبرز المؤلف ان مدحة عكاش انتزع الحياة من حياته مجداً أدبياً وسؤدداً أبدياً، وما اختياره ليكون مرجعاً، وذواقة إلا لأنه وعن أنه أديب شاعر أحب نفسه في إبداع غيره، فانتحى مكانه موجهاً لفيف الشعراء صحفياً، يشد أزر الذين لا أزرلهم الا الكلمة التي أقصى رغائبهم أن تبصر النور على يديه

المباركتين اللتين فيما يبعث الفرح الحقيقي حافزاً للاستمرار والتواصل.

وبعد «ذو الثقافتين» يؤرخ الباحث لإبداعات الشاعر النقادة، ورائد الاشتقاق اللغوي في العصر الحديث احمد اسعد علي «الحارة» المولود عام ١٩٣٨ في قرية الحارة، محافظة اللاذقية، والذي درس الثانوية العامة، ثم درس الحقوق بحلب، واللغة العربية بدمشق، وأسس منتدى أدبياً في نهاية الخمسينات، ويسعى لإنشاء «منتدى القصيدة العربية، وهو عضو في اتحاد الكتاب العرب في سورية.

أما دواوينه المطبوعة: ديوان الحارة ثلاثة اجزاء ـ ١٩٨٦ ـ أسفار الرؤى العشر ١٩٨٨.

وله تحت الطبع: دراسة في النقد الادبي، والحداثة والمضادة، والواجب والممكن في الكلمة الشاعرة، وقد حصل على وسام استحقاق تشرين، وعدد من الجوائز، وكتب عنه العديد من الدراسات في الدوريات العربية، ومما نعرفه عنه انه كان لسان مناسبات طلابية تظاهرية كثيرة في الخمسينات منها في اللاذقية ١٩٥٥-١٩٥٦ وفي حمص ١٩٥٦-١٩٥٧، وهو عضو اتحاد المؤرخين العرب، وقد قال في حديثه عن الشعر: علي الرغم من كل ذلك إنني متفائل بالعودة الى الامام، لأن الحقيقة لا تموت، حيث تنبعث ابداً بحداثة مزامنة وموازية للتقدم.

من هذا كله يرى الباحث المؤلف أن العمل الاشتقاقي في القصيدة الحارية اصبح مدرسة فريدة، فهو عمل متفرد في عصر يحتاج الى اختزال او اختصار الشيء مادة أو زمنا، وبهذا يؤيد اقتراح الشاعر حامد حسن بأن يسجل هذا الابداع الاشتقاقي باسم شاعرنا الحارة في المؤسسات المختصة، وخاصة منها المجمع اللغوي.

ويأتي بعدئذ الاديب الدكتور عبد اللطيف اليونس الذي ولد في بيت الشيخ يونس في الجنوب الغربي من مدينة صافيتا عام ١٩١٤، وقد تلقى تعليمه على يد العلامة الشيخ عبد الرحمن الخير، والعلامة جبر ضومط، ثم عمل في التدريس في بلدة وادي العيون مدة سنة واحدة ، ثم عمل رئيساً لتحرير جريدة صوت الحق التي كانت تصدر في اللاذقية، وفي عام ١٩٤٧ كلفه رئيس الجمهورية شكري القوتلي بالذهاب الى اميركا الجنوبية والبرازيل والارجنتين للدعاية للقضية الفلسطينية، فلبى الدعوة وزار فنزويلا والبرازيل والارجنتين والاورغواي وتشيلي، وفاز للمرة الثانية في الانتخاباتالنيابية عام ١٩٥٤، وللمرة الثالثة عن منطقة صافيتا عام ١٩٦١، وسافر الى اميركا الجنوبية عام ١٩٦٤ واسس في مدينة سان باولو جريدة الانباء، وكرسها للدعوة الى القضايا العربية، والدفاع عن حقوق الامة والوطن، وقضية للدعوة الى القضايا لعربية، والدفاع عن حقوق الامة والوطن، وقضية فلسطين، وفي عام ١٩٥٧ تنازل عن امتيازها لصديقه الاستاذ نواف حردان، ثم انتقل الى الارجنتين واسس جريدة الوطن التي صدرت بالعربية والاسبانية وماتزال حتي الآن.

ومن مؤلفاته: الجبل المريض، ثورة الشيخ صالح العلي، بين عالمين، شكري القوتلي حياة رجل في تاريخ أمة، المغتربون، شفيق معلوف شاعر عبقري واهازيج الفن، زكي قنصل شاعر الحب والحنين، من صميم الاحداث ، مذكرات الدكتور عبد اللطيف اليونس.

نال جائزة جبران خليل جبران عام ١٩٩٢ من لجنة احياء التراث العربي في اوستراليا، ومما قاله المؤلف عنه: هوذا الاديب والصحفي والسياسي والشاعر الدكتور عبد اللطيف اليونس مقيماً ومغترباً، ومن ثم مقيماً لأنه يأبى الخنوع، ويقدس المقام والإقامة في أنفة وتيه وحرية وخيلاء.

أما الاديبة الفة الادلبي فهي من مواليد ١٩١٢ في مدينة دمشق من ابوين دمشقيين هما أبو الخير عمر باشا، ونجيبة الداغستاني، وقد تلقت علومها في مدرسة تجهيز البنات، وتزوجت من الدكتور حمدي الادلبي عام ١٩٢٩ قبل ان تكمل دراستها، وقد عملت في لجنة النثر في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب زهاء سبع سنوات، كما عملت في لجنة المقتنيات في مؤسسة في مؤسسة السينما، وساهمت في العديد من الامسيات والمحاضرات ونشرت في صحف ودوريات عربية عديدة، وأجريت معها مقابلات صحفية وتلفزيونية كما ترجم من قصصها الى اللغات الروسية والالمانية والفرنسية والانكليزية ، والاسبانية، والمجرية والصينية،والتركية.

ومن مؤلفاتها المطبوعة: قصص شامية،وداعاً يا دمشق، المنوليا في دمشق، ويضحك الشيطان، نظرة في أدبنا الشعبي، عصي الدمع، دمشق يابسمة الحزن ، نفحات دمشقية، اسرائيليات، حكاية جديد، وداع الأحبة.

ولها تحت الطبع: عادات وتقاليد حارات الشامية القديمة، مجموعة محاضرات، ومجموعة قصصية: ما وراء الاشياء الجميلة.

يقول المؤلف عن أعمال الفة الادلبي: كل متتبع لتلك القصص والروايات يدرك تفوق ونجاح ما أرخته للتراث الشعبي مما جعلها قطباً بارزاً من أقطاب المدرسة الواقعية ، وسيجد القارىء أيضاً كيف أحاطت الاديبة الفة الادلبي بالمرأة، بل كيف حرضتها ودافعت عنها، وأرادت لها الانعتاق والانطلاق في مجالات الحياة مفصحة عن تطلعاتها، معبرة عن آمالها، تعطيها الخصائص التي تسلكها على أن تكون متسلحة بالوعي والثقافة لتواجه الواقع، وتتحرر من أغلاله، وتساهم في بنائه بفاعلية وجدارة. وبعدئذ نتوقف عند الدكتور خلف الجراد هذا الاديب الذي ولد عام ١٩٥٠ في ريف الحسكة في أسرة فقيرة كادحة، وحصل على تعليمه الابتدائي والاعدادي والثانوي ثم تشبع بالمطالعة، وانتسب في جامعة دمشق الى قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، وقد تم ايفاده للحصول علي الدكتوراة في الفلسفة من الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٥٧، فبقي في مدينة لينينغراد مدة خمس سنوات حصل في أثنائها على الماجستير فالدكتوراه في الفلسفة، وله مشاركات دائمة، وحضور فعال في الندوات والملتقيات الفكرية، وهو عضو اتحاد الكتاب العرب، ومن أعماله: الفن والايديولوجيا - ترجمة، عن فاريا - وثقافة السريان في القرون الوسطى ترجمة عن نينا بيغوليفكايا، وفيلسوف الفريكة أمين الريحاني ترجمة عن ز - ي - ليفين - ومن تأليفه: اليزيدية واليزيدون الذي حقق برأي المؤلف الغاية الشريفة التي كانت الحافز الاكبر لتأليفه، وتتمثل في البحث المخلص عن الحقيقة، ووضع منهجية سليمة وموضوعية لدراسة الاديان والعقائد والمذاهب، انطلاقاً من معطيات علم الاجتماع الديني ومفرداته، ومن رفضه التام والمبدئي لكل تعصب مذهبي أو حكم

معياري تصنيفي مسبق، وفي ذلك من دون شك مساهمة مشكورة مفيدة في مجال الحوار بين الاديان والمذاهب، وتعميقاً عظيماً لأسس التفاهم والتآلف والاحترام المتبادل بين أبناء الوطن جميعاً.

وينقلنا الكاتب الاديب «البشارة» الى شاعرية ناصر الخوري هذا الشاعر الذي ولد في بلدة القريا محافظة السويداء عام ١٩٣٩ وحص لعلى الشهادة الابتدائية ثم تابع دراسته الاعدادية والثانوية في دمشق، وحصل على اجازة في الحقوق عام ١٩٦٦، وانتسب الى كلية الشرطة عام ١٩٦٩، فعمل رئيساً لفرع لإعلام في ادارة التوجيه المعنوي بوزارة الداخلية، ورئيساً لتحرير مجلة الشرطة منذ ١٩٧٨، وهو عضو اتحاد الكتاب العرب، ونشر في العديد من المجلات والصحف العربية، وشارك في العديد من الامسيات والمهرجانات الشعرية ، وله عدة دواوين شعرية: خفقة قلب، سنابل، هل يورق الحزن حباً، لمجدك يحلو الوفاء.

وقد وضع الباحث الاديب «البشارة» الشاعر ناصر الخوري في كفة الميزان.

أما من حيث البنية الفنية، فللقصيدة الشعرية صياغة فنية متينة بأسلوب جميل متماسك، اذ البحر والقافية لا يأتيان اعتباطاً توافقاً وتناسباً دقيقاً مع التعبير الجوهري النابض بطاقات شعرية وظفها الشاعر للغرض المقصود في غاية الروعة والنضوج.

ومن خلال مطالعتي في الكتاب، وتجوالي بين حدائق هولاء الادباء الغناء، استوقفني المؤلف باهتمامه المتميز تجاه قاص اسمه محمد باقي محمد، أضفى على نتاجه القصصي بعداً عميقاً حين سلط الضوء عليه، وضم نتاجه بين هذه الكوكبة المتألقة بسويتها الفنية العالية، علماً بأنني لم اسمع من قبل بهذا القاص، ولم اقرأ له من قصص أو دراسات عنه كما نوه المؤلف، ومن المحتمل ان يكون المؤلف يشد بأزر هؤلاء الشباب ليحفزهم على العطاء الاجمل والابداع اللائق، ولعمري هذه هي الرسالة الاصدق، والمهمة الاسمى.

في خاتمة المطاف نتوقف عند الاديب الناقد احمد المعلم الذي ولد عم ١٩٤٣ في قرية عاليات، ودرس الابتدائية والادعداية والثانوية في حمص، ثم اصدر بالتعاون مع الشاعر سليمان ضحية مجلة الميماس التي لم تستمر في الصدور، وشارك في النشاط المسرحي في مسرحية عبد الكريم قاسم، ونال جائزة آنذاك، مارس التعليم في الجزائر، وقد نشر في العديد من الدوريات والمجلات العربية، ومن مؤلفاته المطبوعة: الواقع والظاهرة الفنية في القصة القصيرة، و«الجذوة» دراسة في الشعر المعاصر، وله تحت الطبع: الشتاء والمرأة في القصة القصيرة، مسائل في البناء القصصي، دراسة في الرواية «الزمان الروائي» ويختتم الاستاذ «البشارة» دراسته عن احمد المعلم بقوله: يبقى الاديب احمد المعلم من هؤلاء النقادين وليس المنقادين ، يصب مخزونه الثقافي بتحكم وقدرة ناجمة عن سلامة واستنتاج قويم، متشرباً بنقاء تراثنا العربي التليد، وما فيه من مقومات حضارية خالدة.

هنيئاً للأديب الباحث الاستاذ ميشيل البشارة على عمله الموسوعي التاريخي هذا ـ أدباء من وطني ـ بعد صدور جزئه الثاني، وبارك الله به لأن له فعلاً الريادة في تسليط الضوء على ما أمكن الوقوف عليه من عبقرية منتمية للأدب العربي المعاصر.

فئران

وكسرة خبز مسمومة

بقلم:

سامر اسماعيل

صوت مفاجيء.. نشاذ عن كل الاصوات المتآلفة في ذلك الشارع المفعم. ابواق سيارات.. زمجرة شاحنات.. صوت مكابح سيارة.. نظرت بسرعة الى اليمين. سيارة فاخرة امامها جثة احدهم.. يبدو أنه مات.. حشود الناس تكثر بسرعة يرددن كلاماً غريباً.. ليرحمه الله.. إنه في عمر الشباب.. الحق على السائق.. يبدو أنه مات.. ياحرام ليساعد الله أهله وبسرعة كل شيء يختفي.. حشود الناس تنقرض بسرعة.. الجثة تذهب الى البراد والسائق يذهب في نزهة مع الشرطة..

حتى بركة الدم تختفي شيئاً فشيئاً.. المطر.. انها قطر.. الدم يتحلل.. السيول تغسل الشارع والأرصفة المصبوغة بالدم..

هذه هي كل الحكاية.. أتابع مسيري ولكن لا أعلم لماذا كنت أشتم رائحة دم طازجة تفوح في أنفي؟ كانت تطاردني المطر وأنا نشعر بالذنب.. خطواتي تصبح أكثر تسارعاً وهستيرية وعنقي تغرق بين كتفي وتصطك أسناني ببعضها.. اشعر بانني هيكل عظمي لا يملك سوي لحم انفه الذاخر برائحة الدم البشري! لقد اقتربت من البيت.. البيت!؟ لا زال مفهوم البيت جميلاً في مخيلتي المشلولة.. إنها غرفة حقيرة.. انها مومس بلا ذاكرة بلا ملامح بلا ضمير.. اصعد الدرج المهتريء بحذر وأنا أرتعش أحس بأن جسدي تحول الى جسد ثعبان إفريقي لم يعتد البرد.. مفتاح تآكلت أسنانه في قفل أكله الصدأ.. أحرك المفتاح.. بفتح الباب بكل سهولة لا أدري ما فائدة هكذا أقفال.. أدخل انها الغرفة بكل مافيها.. جدرانها قصور لفئران بلا وطن.. الفئران.. إنها المخلوق الوحيد القادر على تحطيم زجاج الصمت.. لا شيء واضح.. كل شيء كما هو.. غرفة عارية دائماً .. انها مثلي ربما تكون مثلي.. فنحن «أعني أنا والفئران» عراة في الأصل..

ارتجف.. يعود لي شعور الهيكل العظمي .. احاول ان ادفأ نفسي بسيجارة.. تمتد يدي العنكبوتية الى جيبي.. تبحث اصابعي عن شراذم علبة سجائر.. ها هي.. أخرجها.. انها السيجارة الاخيرة حسن

تكفيني .. انها وليمتي الخاصة.. اشعلها.. عود ثقاب يهوي.. انه يحترق تدريجياً.. علبة السجائر المجوفة.. تشتد قبضتي عليها.. أكورها ثم أرميها جانباً.. لقد انتهت .. لا أعلم لماذا تشكل الي المهملات أحياءً خلقوا .. للتعذيب.. علبة السجائر.. عود الثقاب.. حتى السيجارة.. كلها تعاني من حمى البقاء والفناء .. لا يهم .. أنفث أدخنتي في هدوء ومدخنة في تتقن نفث الابخرة التي اختلطت مع ادخنة سيجارتي الاخيرة.. انظر الى الغرفة.. كم هي مملة.. على جانبي أشلاء أوراق مزقتُها البارحة.. أول البارحة لا أذكر.. المهم كلها محاولات فاشلة لا زالت أفكاري في جوفي ..! أشعر انني سأتقيء حبراً وورقاً وشعراً الاحظ سجارتي من جديد فأتناولها بسرعة.. أقبلها بنهم وأضعها تعاني في صحن السجائر تصارع نهايتها .. وأتكوم في سريري.. الشارع خارجاً مقفر الا من بعض القطط التي تبحث عن استمراريتها في شقوق الجدران المهترئة لكنني اسمع صوتها انها تبحث عن شيء للأكل فتات خبز كنت قد اهملته متقصداً.. فقد اعتدت علي توفير الغذاء لهذه الفئران لقد تعايشنا بشكل غريب .. كل منا يحفظ ملامح الآخر لعل الفئران لا تتعذب في حفظ ملامحي فأنا هنا الوحيد من الجنس البشري في هذه الغرفة المفترسة أما أنا فقد كنت ضعيف الذاكرة فالفئران هنا كثيرة وكلها تشبه بعضها البعض .. لا يهم.. كلها فئران رمادية والشيء الوحيد الذي كان يضايقني لونها الرمادي لا ادري لماذا لا احب اللون الرمادي.. ابي كان يقول: يا بني الحياة لونان أبيض واسود فحذار أن تكون رمادياً اما ان تكون ابيضاً او اسود فحذار ان تكون رمادياً اما ان تكون ابيضاً أو اسوداً «نصيحة كلاسيكية» الآباء لا يتقنون سوى النصائح.. أبي عندما غادرت القرية زودني بكيس من النصائح لا شيء سواه وأمي زودتني بكيس آخر أشد ثقلاً مع بطانية وشرشف وبعضٍ من خبز «التنور» والسمن لعربي..!!..

مضى سنة على دراستي في الجامعة ذلك المزيج الغريب من القياسات والطبقات والآراء والفلسفات.. في أول يوم من دراستي كنت اشعر انني ساتوه واطحن في رحى المحاضرات والدراسة ثم تحولت الى اشارة استفهام مستمرة والاجوبة كانت بليدة مجرد تنظير ومبالغة فلم تكن تعجبني اجوبة اساتذتي في الجامعة كنت أشعر أنهم يكذبون علي ولكنني كنت أتظاهر بأنني اصدقهم.. أحدهم قال لي: بأن دراسة التاريخ دراسة فرضيات جدلية ونظريات .. بين الشك واليقين.. كيف ؟ هل حطين بين الشك واليقين؟ هل طارق بن زياد بين الشك واليقين هل هو ميروس شاعر الإلياذة والأوديسة هو ايضاً بين الشك واليقين.. احياناً كنت اظن بان التاريخ قصة قديمة كانت جدتي ترويها لي نعم جدتي كانت تتقن روي الحكايات والاقاصيص.. كانت تقول: «كان ياما كان في قديم الزمان..» لم تكن تحدد قبل ام بعد الميلاد.. قبل التاريخ أم بعد التاريخ؟!.. لماذا لا تكون جدتي جزء من التاريخ فهي أيضاً تتقن سرد القصص!!..

مابالي وبال جدتي الآن.. السيجارة لقد صارت في النهاية آخذها بحنان مصطنع أغتصبها بين شفتي ثم أتلذذ بقتلها في صحن السجائر الذي يشبه مقبرة ما كنت قد شاهدتها في قريتي.. لا شيء محدد شواهد وأكاليل زهور ذابلة واضرحة تقوم هنا وهناك.. قصص لأناس عاشوا قديماً «ما علينا» الله يرحمهم.. الكتب على المنضدة انها جثث لمعركة انتهت منذ زمن بعيد.. أتناول كتاب الاغريق.. أتصفحه شراذم من ياسمينة يابسة.. لقد أهدتني إياها عفاف ونحن في حديقة الجامعة.. فتاة لا زالت تؤمن بالحب والمبادىء وقصص الحب الشكسبيرية «عفاف مابك يا سمير.. أراك شارد الذهن.. هل تفكر بالامتحان لا بد انك خائف «سألتني»

ـ الامتحان.. كم انت ساذجة .. الامتحان لا يعني أكثر من سيجارة احرقها بين شفتي .. لا اعلم لماذا اري بك ياعفاف تلميذة المرحلة الابتدائية التي ترتجف من نظرات معلمتها وتردد

ببغاوياً قصائد الشعر ودروس الإملاء .. معقول انك لا زالت تؤمنين بالخوف من الامتحان ؟!

عفاف: كل نجاح يسبقه خوف.. (قالتها بثقة)

ـ نعم ولكن النجاح يمكن ان يأتي بدون خوف.. ونتابع حديثنا اليومي المقرف.. أجاملك ببعض الكلمات. اصطنع ابتسامة محنطة واراقبك دون ان تشعري.. ابحر في ملامح وجهك.. اتشرب عينيكِ حتى الثمالة وأنت لا تنتبهي .. تكملينَ حديثك.. محاضرات.. دروس.. حلقات بحث.. وكانك ايبوت لحسناء نائمة.. مستيقظة وانا اتابع الابحار في تفاصيل وجهك خطانا تسرع اكثر فأكثر.. موقف باص .. انتهى.. الى اللقاء غداً .. اقنع نفسي بالانتظار الى غدٍ حتى اكمل رحلتي في ملامحكِ..

البرد شديد.. ياله من شتاء .. اشعر برغبة الى شرب برميل من الشاي الساخن.. انتفض من سريري اشعل الموقد النفطي.. انفخ من روحي فيه فتدب الحياة في أطرافه المتآكلة.. يؤنسني صوته.. انه يشبه صوت ابي.. صوت طاحونة ابو يحيى وأشياء كهذه .. احتاج الى الابريق.. اتأكد من عدم وجود صراصير في قعره.. املؤه بالماء.. وادعه لألسنة اللهب تعالجه كما تشاء.. كأس من السكر الذي قارب ان ينفد مع انني مقتنع انه لا ينفد لكنه يذوب .. أضيف قليلاً من الشاي بالقرفة الله يذكرك بالخير يا أمي.. كنت تقولين بأن القرفة دواء لكل داء.. ابتسم بقرف .. اشعر بالنشوة والانتصار.. افرغ قدحاً من الشاي في كأسٍ تآكلت اطرافه.. انها الفئران.. كيف تآكل الزجاج؟ الا يؤلمها ذلك.. لا بد انه الجوع.. لا بأس .. انها فئران مسكينة اعتادت قضم الزجاج لتأكل ما تشاء .. احياناً اظنُ انني سأستيقظ صباحاً لأرى أحد أطرافي قد أكلته تلك الفئران..

احتسي بهدوء كوب الشاي.. اشعر بحرارة الشاي في احشائي المتجمدة البلعوم.. المري ثم المعدة ثم الـ.. اشعر بان صدأي قد تحلل ومن جديد انتبهُ الى وجود الفئران.. انها تأكل .. عيونها بريئة انها فئران طموحها صغير جداً.. اذا وصل قمته يصل الى كسرة الخبز احياناً اشعر بانني اتوحد مع تلك الفئران.. احس نفسي فأراً بشرياً فأنا أيضاً مثل اناس كُثر طموحهم العظيم لقمة العيش.. «كسرة الخبز» ورغم رفضي ان اكون مجرد فأر طموحه كسرة خبز فأنا دائماً رهين هذه الرؤية ليكن.. يبدو ان مسنناتي ومحركاتي تحتاج الى الراحة .. فيسرقني النوم.. في الصباح.. الشمس.. لا شيء جديد.. ارفع عني الغطاء كمومياء حُنطتْ منذ الف عام وازيل عن عيوني شبح النوم ولكن ما هذا .. انها الفئران أربع بل خمس فئران.. مؤكد انها ليست نائمة.. اقترب منها وقد استلقت وكأنها جثث ميتة.. احاول التحرش بها علها تبدي حركة او انفعال ما.. ولكن.. لا حياة لمن تنادي.. ماتت الفئران .. الخبز .. لقد كان مسموماً.. سحقاً لها.. انها صاحبة الغرفة «ام كمال» انها تكره الفئران ولا بد انها وضعت السم على قطع الخبز التي تركتها قصداً لهذه المخلوقات المسكينة.. وفي نفس الوقت اشتم رائحة دمٍ طازجة.. تذكرني بشعور الهيكل العظمي واسمع اصوات الناس الذين يلقون بعبارات الحرام والحلال والندب والشفقة ورغم مأساوية المنظر فأنا لم أجرؤ على قول عبارةٍ واحدة لأقنع نفسي بأنني قمت بالواجبِ.. الواجب هكذا البشر تموت مثل الفئران عفواً بل ان الفئران تموت مثل البشر.. الله يرحمها.. انها في عمر الشباب الله يصبر اهلها.. الحق على السائق.. هذا كل شيء.. ثم آتي بمكنسة كيس اسود.. اختفت جثث الفئران المسمومة واقنعت نفسي بأنني قمت بالواجب..!!.

حيرة سؤال..؟!

بقلم:
وداد كنفاني

دخلتُ من الباب لأجدها بجلستها المعتادة وهدوءها المطبق .. تتصفح كتاباً، وتقرأ فهرسه في البداية ثم تقلّب صفحاته البداية .. لتبدأ رحلتها معه.

نظرتُ إليها. ليمر شريط ذكرياتنا سويةً .. أحاديثنا .. ضحكاتنا .. حركاتنا .. وسكناتنا .. اقتربتُ منها قليلاً وأحسست بالبرودة التي بداخلها تجتاحني بقوة.. ودون أن تتحرك رمقتني بنظرة من عينين ضلَّ النور طريقه إليهما فباتتا باهتتين، غائبتين هناك، وما أن تابعت تصفحها ..

ألم تعرفني!. هذا ما لا أصدقه، وما أن قطعت عليها صمتها بكلمات السلام الماضية خاصتنا حتى نظرت إلي.. تغيرت ملامحها بسرعة البرق .. وعلَت ضحكاتنا كالرعد، وأقبلتْ عليَّ بترحاب كبير ودموع كثيرة..

خرجنا من المكتبة وعيناي معلقتان بها.. يدور بينهما حديث غريب حول أحوالها وماذا حل بها!

لنقصد مكاناً بعيداً لم تطله يد الحضارة بعد .. حيث نسيه العالم الصاخب الثرثار وزحمة الأشياء. تفاجئتُ بسكون الطبيعة وسحرها والأغصان مستلقية بين ذراعي الطريق بدلال وغنج.

استقرينا في حضن شجرة عمرها مئة عام لنتبادل أسئلة انتظرت دوران الارض لمرات ثلاث حول شمسنا الساطعة بخجل بين لوحات مما أبدع الخالق من غيوم ملونة.

كانت شعاعات خفيفة تضيء وجهها التعب لتظهر ما استشرقت عليها

الأزمان.. ليتقدم سؤالي الفضولي الأول من بين مئات غيره وينطق ما بك صديقتي .. أين أصبحت وكيف؟ ماذا جرى لتلك الضحكة البريئة وبريق العينين ونضارة الوجه الطفولي.

ببطء حذر ابتدأت الكلام .. بأنها مازالت بخير وأن مستقبلها بدا جلياً أمامها ينتظر مرور الوقت وبشغف واحتراق عاشق .. حضنتها لأهمس لها مابك!!

ما هذه النظرة الحزينة والصوت الصامت؟!

قالت:

أين كنتِ صديقتي .. أين كنتِ منذ زمن!

لم تكوني جانبي فتحدثتُ مع نفسي، لم تكوني جانبي فبكيت لنفسي. وتألمتْ نفسي وانتعشت بنفسي.. كنتِ دائماً نفسي التي أشكولها.. كنت معي..

وكانت كلمة: **لا أعرف .. لماذا؟**

تلازمني كالصلاة .. أيامي معها سبات عميق لا شيء يكسره .. كانت كل عالمي ويدور فيه سؤلي المتعطش لجواب يبرئه من سقمه العميق وأنا معه كتلة تئن بأحزان العالم مكبةً وجهي على الأرض كطفل أمام طابته الهاربة..

لم أعرف يوماً أني ضعيفة .. كبرعم في عاصفة.

لم أعرف كيف خفت كطفل في هاوية..

عندما لم أعرف الجواب على سؤال حياتي .. لماذا؟

لماذا تركني .. لماذا ابتعد عني..!

قطع تذكرة واحدة في قطار النسيان وخلفّني وراءه حائرة.

دون جواب أو مذكره..

لم يترك وراءه حتى وردة .. تجيب عن هذه المعضلة..

ومع إشارات الاستفهام التي كانت تتكاثر بسرعة كالارانب وتتساقط من حولي كأوراق الخريف.. كنت أتذكره دوماً وأعيش..

عندما تلتقي به .. تشعري كأن نسمياً عليلاً يهب عليك .. وتصافحيه فكأنما هو يفتح صدره لك وتجلسي إليه وكأنك في حضرة روح حائر .. وتستمعي لحديثه فيأخذك العجب من طهارة قلبه وبراءة نفسه وعذوبة صوته وطلاقة محياه.

يضحك فتشع فيه نضارة معبودة كنضارة الاطفال ، فيأخذ في ارسال النكتة تلو النكتة، حاضر البديهة عبقري الفكاهة، جم الحيوية .. يضحك ضحكات عريضة مليئة كأنما الرفح كله قد اجتمع في فؤاده .. وكأنه نسي في لحظة واحدة كل ما استشرقت عليه نفسه من هم الحياة.

فتذهلين ويتضائل شخصك في عين نفسك، ويعزّ عليك نقصكِ ولا يعزيكِ في النهاية إلا يقينكِ بأن الخير الذي استقر في سواكِ وتمثّل نابضاً حياً في قلب هذا الشاب الرجل سيعود عليكِ بالسعادة والمطائنينة والهناء لكونكِ بجانبه.

عرفته في البداية.. بعد كلمات كثيرة تصدرت أوراق بيضاء بريئة .. ووعود قطعناها على الصداقة والوفاء.. زرعنا سوية بذرة غنية بكل المفاهيم والقيم المجردة من الانانية والفردية .. كنا

واحداً في الافكار التي استسقيناها من ينبوع الصداقة الصافي .. عبر حمائم بيضاء حملت عنوانه أو عنواني هكذا تم تعارفنا الأولي خلال رسائل ملونة عقدت بيننا عهد صداقة لا تموت وأصبحنا وجهين لعملة واحدة موطنها الصداقة.. رغم بعد المسافات الزمنية بين تلقي الرسائل إلا أنها كانت الواحة التي ظهرت علي حين غرة لتائه في صحراء .. كانت قدراً سعيداً لا بد منه كانت ذاتها صداقة حميمة. لم أره أو أعرف صوته .. لكني شعرت به وعشت معه قروناً سعيدة قصيرة .. وابتسمت لي الحياة عندما بلغني خبر قدومه لأرض الوطن ..

وجاء اليوم الذي سأراه فيه .. كان يوماً نسيه الزمان .. وبعد تحديد المكان والوقت.

ذهبت ووقفت هناك أرسم بنظري الطريق الذي سيأتي منه وكانت تلك اللحظة الفاتنة عندما رأيته يخطر أمامي - كأنها حفيف أجنحة عصفور يرفرف لاول مرة .. كبرعم يتبدّى في أعلى قمة لاول مرة.. وتفتحت زهوري كلها عندما رأيته يقف شامخاً كالجبل .. هادئاً كطلوع القمر، عرفته من الخلف كما حواء عندما التقت آدم. تسمرت عينيّ وجلاً .. اقتربت أكثر وخفت .. مشيتُ أطوي الطريق دون أن أثير أذى حركة تقلق رتابة الجو .. وجاءت اللحظة التي أطلقت فيها صرخة هذا الطفل الذي وُلِدَ عملاقاً إنها البداية عندما تعرّف علي بسرعة هائلة من نظرة واحدة لحقتها ابتسامة عريضة وسلام، ثم بدأنا نزرع الطريق بخطا بطيئة نتبادل خلالها اطراف حديث بكلمات أنيقة، رغم أنها لا ترتدي ربطات عنق . أحاديث كثيرة حول روعة الوطن وطهارة أرضه وطيبة أهله وناسه وبالمقابل سوء حال المغترب وبؤسه وشقاءه وصعوبة الغربة..

إلى منظر الازهار المترامية بفوضى رائعة على ضفاف الطريق منتشية بجمالها الصارخ.. لقد كان ربيعاً. وبعدها توالت لقاءاتنا تحدثنا خلالها كثيراً عن كل شيء منذ بدء الخليقة..

حفظت خلالها صوته الممتلىء بالطمأنينة .. نفسه المتفائلة بكل شيء حتى المشاكل يتفائل بها ويعتني بجعلها أحداثاً سعيدة . فكرتُ به وبالسعادة التي غمرتني وزينت حياتي وأعطتها لوناً ربيعياً.

تمنيت لو أبقى معه طيلة حياتي الباقية لاتنازل عن نصف ما بقي لي فيها وأعيش لأجله النصف الباقي.

ليتني أنفرس أمامه لانسى كل العالم ونفسي قبل كل شيء .. لأعيش بهذه السعادة لأقص من رأسي شريط الذاكرة وأذري حروف اسمي الاربعة المنفصلة في الهواء فأعود لا وجود لي إلا معه، ولا مكان وعنوان واسم الا معه.

رغم ذلك .. لم يعرف للحظة أني مهتمة به.. إلا أني لاحظت اهتمامه بي وبأفكاري .. قرأني .. غاص لأعماقي.. فهمني .. استوعبني .. واذهلني توارد أفكارنا التلقائي فما أن أفكر بشىء ليبدأ بطرح الموضوع كاملاً ..

ذكريات جميلة قليلة أحملها معي أينما ذهبت عن أربعة أيام سعيدة هانئة

تلك التي شعرت خلالها بانقلاب جذري طاف كياني كله . وكبرت معه مع تجاربه الكثيرة مع أفكاره ومعتقداته.

وحانت ساعة الغياب .. ليعود غربته المقيتة حين ذهبت أودعه .. صمت الكون من حولي ليتحوّل الى صحراء بلون واحد فلم أعد أسمع إلا طرقات قلبي الذي لفه الهلع والخوف من رهبة الفراق وأحرقني البرد..

ناديته بصوت أجش خافت لكن لا أحد يجيب .. ناديته دون جدوى .. عدت للصمت .. وكل ما قلته ما كان سوى دندنة أخرس يريد أن يغني نشيداً في ساحة الصمت هذه. لم أدري بنفسي إلا وأنا أمسك بيدي الاخرى التي لامست يده عند السلام الاخير متذكرة سلامها الاول. أملأت أدق شرايين جسمي بالشجاعة وتشربتها روحي لاستيقظ يقظة الموت بعد فراقه. دار بي الكون.. وبدأت مشاعري بالتأوه كالوردة الصغيرة التي بقيت معه وتمنيت لو كنتُ مكانها.

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أغص باسمه وتذكرت حديثه الذي كان كمنقذ غريق على شفة الموت وها هي الشجاعة بدأت تهرب مني لاستسلم أمام كلمات كتبتها فور وصولي من هناك الى المكتبة.

كانت مشاعر مختلطة تتسرب من بين أصابعي والقلم لتوقع على ورقة نعوتي والتي سببت النهاية، مشاعر كانت بين الحزن لفراقه دون اعترافي له باعجابي الشديد به وبين الفرح لدخوله حياتي.

مضتْ بعدها شهور كثيرة لم أملُّ الكتابة له باستمرار وبنفس الحرارة في حين كنت كل يوم أمرُ على صندوق البريد ليصفعني بفراغه حتى غدوت بعد هذه الشهور من الانتظار الممض مورمةً!

إلى أن وصلت في يوم جديد رسائله مجتمعة.. أحسست حينها أن القارات الخمس لا تكفي فرح هذا اليوم.. وضحكات طوال الطريق الى المكتبة بعد ان اطلق قلبي احدى وعشرين نبضة.

فاضت العيون بدموع سعيدة وأنا افتح إحدى الرسائل وأقرأ مافيها كنت ابتلع كلماتها التي كانت كترياق للحزن والكآبة.. وما أن تحولت دمعاتي السعيدة الى حمم بركانية هطلت بغزارة لم تشهدها من قبل عند إدراكي تصريحه بأنه بريء ومظلوم من أدنى شعور أحسسته تجاهه.

مضي وقت بين مدٍّ وجذر .. خوف ووجوم وقلق من البقية الباقية . لقد رمى وراءه أقل ما يمكن أن يشعره الصديق تجاه صديقه.. إلى أن خالجني اليأس وأكلت مني الايام كثيراً..

سطرت له بعدها اشارات استفهام كثيرة تضمنت لماذا في كل كلماتها!

لماذا .. ولماذا ..!

كان سؤالاً يتيماً .. حائراً .. يتخبط في خلايا دماغي .. كان سؤالاً سالباً بين مجموعة سلبيات يتنافر مع جميعها يريد جوابه .. تعفن رأسي من كثرة التفكير بنفس الموضوع .. وبعد شهور دامت قروناً طويلة .. عاد ثانية وأبداً الى أرض الوطن..

لألتقيه بالصدفة التي شاءها القدر عند أطلال لقائنا الزول وصخور قاسيون شاهدة علينا ...

وتلون كياني كله حين أقبل علي وسكون رهيب غادر بعد سلام رقيق وتحية عابرة ليترك وراءه جثة هامدة نطقت باسمه ولم تعد تذكر بقية الكلمات..

والتقينا بعد شهرين .. كان نفسه ظاهرياً ولكن اختلف كله .. برود كبير سيطر عليه نقله لي عبر ذرات الهواء التي نقلت عتابي العاتب نحوه .. الصمت مطبق والافواه صامته حتى الهواء الذي كان يتغلغل بين أغصان بعض النباتات سكن لينصت لحديث الصمت خاصتنا..

وما أن شكلت مستعمرة من إشارات الاستفهام لديّ سؤال كبير اقتحم هذا الصمت لاقول له .. لماذا فعلت بي كل ذلك..؟ لكني لم أسمع حتى صوتي .. كان سؤالاً جباناً توقف عند الشفاه ولم يقو على مفارقتها .. وانسحبت بهدوء أفكر بالذي جرى ولم أصل لشيء كأن بحوري ضلّت شواطئها أُصدق نفسي عندما أقول أني لا أعرف هذا الرجل الذي خضع له عقلي ثم قلبي.. الذي نزلت أمطاري لأجله وأزهرتُ من أجله .. أصبحتُ أنثى فقط لاجل عينيه .. وهو تخلى عن كلماته الدافئة أبدلها بثلوج كثيرة تراكمت فوقي فلم أعد أستطيع الحراك.. تجمدت ولكن بقيت براكين مشاعري هائجة بانتظار جواب سؤالها .. الذي لفّ جميع خلايا هذه الجثة المتنفسة ليلتقط طرف جواب..

لم يكن هذا حباً رومانسياً كما الروايات والافلام كان شيئاً آخر.. شيئاً تقبّله العقل اولاً ..

شيئاً لامس الروح وأسرها بقوة سيره لأعماقها.. هكذا كانت علاقتي الوحيدة الطرف معه وقد كان في عالم آخر فيه أجوبة الدنيا كلها إلا جوابي المنتظر .. حاولت التقاطه دون جدوى كأن غايته أن يضع ما أمكن من العقبات في وجهي لم يكن يريدني في عالمه الذي سبق وأذاقني حلاوة أيامه وشهد أوقاته.

وكمهزوم بين جميع المنتصرين .. رميت بأحلامي معه عند عتبة الكون.. وقفت على حافة الكوكب واهديتها للفراغ. قتلتُ شعوراً جميلاً ملأني طوال سنة وشيعته مع أول خيوط الشمس ..

طبق الكسون حياتي التي استمرت بعد أن فقدت روحها وكان التحرك الوحيد فيها لشبح تلك المشاعر المقتولة ولحيرة ذلك السؤال..

حاولت ترميم حياتي التي اكملت نجاحاتها .. دون نبض لقلبي .. لاهواء لرئتي .. ولا أصابع لكفي.. حالي ثابت من حينها صديقتي مع يقيني ان الغد احسن من اليوم.. أغمضت عيني عن ندائه بعد أن جُرِح قلبي بالتأوه وبالتنائي وتابعت دوراني حول متغيرات الحياة الغريبة. وأدركت أخيراً أن الخير الكامن داخل هذا الرجل كثير جداً علي.

تركتُ وصديقتي المكان وأنا أردد لم أكن له ولم يكن لي..

كانت حالة من حالات كثيرة، جيدة كانت أم لا .. إلا أنها صقلت جزءاً كبيراً من شخصي ودفعتني لاكون هرمة في جيل الفتيات مع سؤال يلازمني وحيرة لاتفارقه